جامعة الأزهر الشريف
كلية اللغة العربية ـــ القاهرة
قسم البلاغة والنقد

المقـــام والمقتـــــضى
فى
السور الخالية من الأسماء الحسنى

تأليف
دكتور / إبراهيم صلاح الهدهد
أستاذ البلاغة والنقد

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

المقـــــدمـــة

أحمد الله الذى لا يفى بحمده قول ولا عمل ، و أسأله أن يجعلنـــا مـــن عبيـــد الإحسان لا من عبيد الامتحان ، لأن من نوقش الحساب أخـــذه العـــذاب ، و أصلى و أسلم على سيدنا محمد صلاة تزلفنا إلى شفاعته ، وبعد

فإنك كلما اقتربت من الذكر الحكيم لتستشرف نور بلاغته ، وتستنشق رحيق بيانه ، وجدته بكرا ، ومن حيث أتيته وجدته بحرا ، كيف لا ، وهو الذى أعجز مصاقع الخطباء ، وأخرس شقاشق البلغاء ، وقطع الأطمـــاع ، وقهـــر القـــوى والقدر ، فذلت لبلاغته أعناقهم ، وطأطأت لبيانه رؤوسهم ، ولـــو اســـتطاعوا الإتيان بسورة من مثله ، لكان ذلك أصون لدمائهم التى بذلوها ، ولكـــن لمـــا عجزوا بذلوا فى سبيل مقاومة سلطانه المهج والأموال .

هذا ، وقد كثر فى زماننا هذا قوم اجترأوا على الذكر الحكيم ، فسموه نـــصا دينيا ، أو خطابا دينيا ، أو تراثا لا هوتيا ، أولئك هم أهل ما بعـــد الحداثـــة ، وكان من سالف الأقضية أن التقيت بعدد منـــهم ، ودارت بيننـــا محـــاورات ومناقشات كشفت لى أن هؤلاء الأدعياء لا يعرفون عن بيان القرآن شـــيئا ، و لايفقهون من علومه فتيلا ، و لانقيرا ، و لا قطميرا ، وإنما هى مقالات ورثوها عن أشياخهم ، وقد ورثها أشياخهم من قبل عن سادتهم المستشرقين ، وشـــاعت هذه المقالات على ألسنتهم شيوع الحقائق التى لا تنخرم ، وليس لهم أثارة مـــن علم حول القرآن وبيانه سواها ، فتراهم يصفون الخطاب الفقهـــى بـــالتحجر ، والخطاب الدينى بالتخلف ، و بأن القرآن لم ينصف المرأة ، فإن طالبتهم ببيـــان هذه المواضع التى لم ينصف القرآن فيها المرأة لم تجد عندهم شيئا ، وهذا شـــأنهم

فى كل حديث عن تراث المسلمين ، و لا يغرنك ما ترى مـــن خطـــابهم فى أول الأمر من التوهيم على المخاطب بأنهم اعتصروا التراث وهـــضموه ، وقـــولهم : إنهم لم يجدوا أمرا ذا بال فى تراث المسلمين يستحق النظر ، و الأدهى من ذلـــك أنك تراهم يتحدثون حديث من لم يترك شيئا فى علوم الحديث إلا قـــرأه ، و لا التاريخ الإسلامى ، و لا الفقه ، و لا كتب اللغة ، بل إنه بعضهم قد زعم أنـــه قرأ الكتاب لسيبويه مرات ، وخزانة الأدب ، و إن انتقل الحـــديث بكمـــا إلى مسألة فقهية كان خطابه خطاب الجامع لعلوم الفقه بمذاهبه جميعا ، فيقول لك : لم يقل بهذا أحد من الفقهاء ، ويتحداك أن تأتيه بما يخالف ما قال مـــن كتـــب الفقهاء ، وحين تسأله فقط عن المصنفات الأم لكل مذهب يستـــشيط غـــضبا وينتقل بك إلى مسألة أخرى ، وقد كشفت الحوارات التى لم تنقطع بينى وبينهم أن أكثر هؤلاء ممن تعلم على يد مستشرق ، أو ممن تتلمذ على يد مـــستغرب فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، و ما رأيت أحدا أخطر منـــهم فى مـــصادرة الآراء ، و لا فى قتل الحريات ، و لا فى التعميم فى الأحكـــام ، و لا فى افتقـــاد الموضوعية ، و لا فى الرجم بالغيب فيما لايعرف من هؤلاء ، أقول هذا حتى لا تخدع بسلطانهم من حولك ، والذى يتولى كبره إعلام فاسد فى كل ربوع العالم الإسلامى ، كأنه قد هيئ لتدمير هذه الأمة وتراثها ، ولولا أنـــنى أخـــشى أن يطول الحديث بك لذكرت لك طرفا من هذه الحوارات ، وجملة القول أن نظرة هؤلاء للتراث الإسلامى واللغوى تتلخص فى أمر واحد هو أن هـــؤلاء كتبـــوا لزمانهم بلغته ، وينبغى أن نترك هذا التراث لسياقه التـــاريخى فقـــط ، وننتفـــع بمنجزات الغرب فى هذا ، وينبغى أن تكون مقولاتنا فى الأدب مثلا ، مستقاة مما يقوله (جاك دريدا ، ورولان بارت ، وإيجلتون ، وجوليا كريستيفا ، و لا كان

، وجون إليس ، و إديث كروزويل ، و آرت بيرمان ، و روبــرت شــولز ، و ميللر ، و دى مان ن وبلوم) وغيرهم ، حسب ثقافة المتحدث إن كان فرنسى المشارب حدثك عن نقاد الأدب الفرنسى ، و إن كان إنجليزى الثقافة حــدثك عن مشاهير نقاد الأدب الإنجليزى ، وهكذا ، و إن خرجت عن هذا الإطــار فى حوارك معهم كنت من أهل العصر الحجرى ، وكنت رجعيا ، وربما اتهمــت فى عقلك ، وكنت ممن تجاوزه الزمان ، ولست من الداعين إلى رفض كل جديد ، ولكن بعد اعتصار قديمنا ونفضه ، والعكوف عليه لاســتنبات أفكــاره ، و لا أزعم أن وقتى كله عكوف على قراءة منجزات هؤلاء ، و لا أنــنى بلغــت فى الاطلاع على منجزاتهم شأوا بعيدا ، فقد ربيت على يد أشــياخ لا يعرفــون الكذب و لا الخداع ، و لا المراوغة ، و إنما يعرفون الــصدق والموضــوعية ، ويعافون ممارسة التمثيل المسرحى ، الذى يحيل الشيطان إنسانا والإنسان شيطانا ، لكنى أقول لى اطلاعات على منجزاتهم ، لأننى لا أحب أن أعيش فى كهــف بعيدا عما يدور حولى ، و أهمس فى أذنك أنه لا طريق إلى محــاورة هــؤلاء إلا بمعرفة تراثهم وقراءة منجزاتهم إلى جانب تراث أمتك ، وتراثنا لا يجزأ إلى تراث دينى وتراث لغوى ، لأن أئمتنا علمونا هذا فيما نقرأ لهم ، فإن فعلت ذلك ، ثم حاورتهم هابوك ، وكان عندك ما عندهم ، وليس عندهم ما عندك ، ولا تكــن لينا فى الحق ، فإن كنت كذلك هادنوك ، و لاينوك ، وكان لهذا انعكاس علــى طلابك ، وكلما حاولوا اللعب بهم فكروا فى الأمر ، لأن معهم طرفا آخر ربمــا يكشف حقيقتهم ، هذا أمر مارسته ، و أنصح كل طالب علــم بممارســته ، و لست أملك إلا النصح ، بل إنه لا سبيل لى إلى عدم النصح ، فــوزر حــبس النصيحة فى العلم عظيم لا أطيق تحمله ، وقد شاهدت حوارا تلفزيونيا مباشــرا

على قناة المستقبل اللبنانية الفضائية مع على أحمد سعيد (أدونـــيس) فى ١٠/ ٤/ ٢٠٠١ م ، و أضع بين يديك شيئا مما رأيته بكل أمانة " سأله المذيع : سمعنا أنك بنيت قبرا فى (قصابين) بسورية ، فهل يعنى هذا أنك تؤمن بالجنة والنار ؟ فأجاب : أنا أحترم مشاعر كل المؤمنين وعواطفهم ، ولكن الجنة والنـــار مـــن الأمور التى لا أعنى بها ! ! وحين هاتفه أحد المشاهدين قائلا : ماذا تنتظر حـــتى تؤمن بالجنة والنار ؟ تنتظر عندما يتحقق قوله : ـــ تعالى (لقد كنت فى غفلـــة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ، أجاب قائلا : أنا لم أقل إنى لا أومن بالجنة والنار ، ولكنى قلت : هذا أمر لا أعنى به ! ! فقال له المذيع : مالفرق بين : لا أومن به ، و لا أعنى به ؟ قال: أعنى أن هذا الأمر لا يشغلنى ، سأله المذيع : نريد جوابا صريحا : هل أنت مؤمن أم ملحـــد ؟ فأجـــاب : إن كان الإيمان يعنى بالكشف عن سر ما هو موجود فأنا بهذا المعنى مؤمن ، و إن كان الإيمان يعنى الاعتقاد بسر ما ليس موجودا ، فأنا بهذا المعنى ملحد ؟ و أنا لست مؤمنا باللاهوت الدينى المعاصر ؛ لأنه يؤول اللاهوت تأويلا خاصـــا به ، و لا يوجد فى عصرنا اللاهوتيون الكبار أمثال الشافعى والغزالى وابن رشد حتى يبدعوا فى تأويل اللاهوت ! ! ثم سأله المذيع : ما رأيك فى التكفير الـــسائد حاليا ؟ فقال : هو نتيجة التأويل اللاهوتى المعاصر ، و أنـــا لا أقبلـــه ، لأن الله نفسه لم يكفر أحدا ! ! { ولست أدرى : كيف لم يكفر ربنـــا أحـــدا ، وجـــل القرآن حديث عن الصراع بين الكفر و الإيمان ؟ اللهم إلا إذا كـــان أدونـــيس عنده كتب سماوية أخرى يستقى منها ما يسميه لاهوتا ، و لا ريب فإنه نصيرى علوى من غلاة الشيعة } وقد طالب أدونيس زعيم الحداثيين العـــرب بإعـــادة صياغة الثقافة اللاهوتية والخطاب الدينى ، وحجته أنه لم ير شيئا ذا بال فى هـــذا

الباب ، { وهذا كلام مخادع مخاتل يوهم سامعيه أنه اعتصر كـــل الإصـــدارات الدينية وغربلها ، وقارن القديم بالحديث ، وهل تظن أن شيئا من هذا قد وقع ، أرأيت كيف يصادرون الحريات الفكرية ، وكيف يفتقدون إلى الحدود الـــدنيا من الموضوعية فى آرائهم ، ثم يُرمى غيرهم بما يصنعون ، ويجهّل سواهم ، ممـــن خالفهم آراءهم } ومما رابنى فى هذا اللقاء أنه لم يهاتفه إلا معارض واحد لأقواله ، وبقية المهاتفين أيدوه بشدة ، وهذا أمر مريب ، يوهم المشاهد العربى أن توجه أدونيس هو توجه السواد الأعظم من المثقفين العرب ، و ليس فى ذلك شئ من الحقيقة ، فهل إعلامنا العربى فى خطابه الثقافى موجه ضد مصالح الدين واللغـــة والوطن ؟ لا حول و لا قوة إلا بالله ! !

هذا شئ أحببت أن أذكره لك فى صدر بحث بلاغى ؛ جريا علـــى طريقـــة السلف فى بث أحوال عصرهم فى كتبهم ، لأنه يعكس انغماس العالم فى أحوال زمانه ، و الأصل أن العلم والفكر يصنعان الزمن ويـــسوسانه ، و إن اهتـــدى الناس بالعلم والفكر عصموا من الزلل ، ولم تغالبهم أمة ، ودع عنك خطاب المقهوريين من الحداثيين الذين يجرونك إلى الغرب جرا ، فى الفكر ؛ قياسا علـــى انتفاعنا بمنجزات الغرب من ملبس ومأكل ومشرب ، وتقنيات حديثة ، بحجـــة العولمة ، فذلك خطاب المهزوم ، ولغة المغلوب ، و لايعرف التاريخ أمـــة أخـــذ بيدها غيرها ، و أقامها من كبوتها أعداؤها ، ولست أشك ، و لايشك عاقل أن الغرب يتربص بنا ، ويمكر بنا مكرا سيئا .

هذا ، وكان أحد أشياخى (أ.د / محمود توفيق محمد سعد) قد نبهنى إلى أنه توجد فى الذكر الحكيم سور خلت من الأسماء الحسنى ، وهذا أمـــر حقيـــق بالدراسة ، وكان ذلك منذ زمن ، فنظرت فى الذكر الحكيم فوجدت فيه خمس سور خلون من الأسماء الحسنى ذكرا ، أو تقديرا ، بل و من أى ضـــمير يعـــود عليها ، وقلت لابد وراء ذلك من أسرار لأن الأسماء الحسنى تـــشكل معجمـــا ضخما فى البيان القرآنى ، فقد أحصيت ما يقرب مـــن أربعـــة آلاف موضـــع ذكرت فيها الأسماء الحسنى ، فى تسع ومائة سورة ، وما ذكـــر مـــن الأسمـــاء الحسنى ثمانون اسما من أسمائه ــ سبحانه ، عدا هذه الأوصـــاف (رب ، إلـــه ، علام الغيوب ، ملك الناس ، مليك مقتدر ، ذو الفضل العظيم) وما إلى ذلك ، على أننى قد حصرتها غير أنى التزمت بما ورد من أسماء الله الحسنى فى الجـــامع الصحيح للترمذى ، وقد أبصرت أن الطريق إلى استكشاف أسرار ذلك هـــو النظر فى المقام ، وما يقتضيه للتعرف على أسرار خلو هذه السور من الأسمـــاء الحسنى ، فسميت البحث (المقام والمقتضى فى السور الخالية من الأسماء الحسنى) وقد اصطفيت المنهج التحليلى طريقا تمضى الدراسة عليه ، وعند تحليل كـــل سورة أستحضر المقام الذى أنزلت فيه السورة الكريمة ، و أســـتظهر ذلـــك فى المقتضى ، وقد خرج البحث فى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة ، وملحقين بالبحث ، وثبت بأهم المصادر و المراجع ، وفهرس للموضوعات .

التمهيد : جعلته لأمور مهمة تتعلق بالبحث جاء فى عدة نقـــاط : حـــديث القرآن عن الأسماء الحسنى ــ جدول بأسماء الله الحسنى الـــواردة فى القـــرآن وعدد مرات ورود كل اسم منها ــ من لطائف مواقع أسمـــاء الله الحـــسنى فى

الكتاب والسنة وكلام العرب ــ سبب النزول ومكانه من المقــام و إضــاءات السلف فى هذا الباب ــ الخلاف فى البسملة ، وهل هى آية من كل سورة) ، وقد نهج هذا البحث منهج جمهور العلماء من عدم عد البسملة آية مــن كــل سورة .

الفصل الأول : سورة المسد ، و أتناول السورة تحت هذه العنوانــات (موقع السورة فى النزول ودلالته ــ موقع السورة فى الكتاب العزيز ودلالتــه ــ حال النزول ــ التصور الجملى للسورة ــ تراكيب الــسورة فى ضــوء حــال النزول ــ خلو السورة من الأسماء الحسنى وملاءمته المقام ــ تراكيب الــسورة تلائم الزمان كله) عدا العنوانات الداخلية لتراكيــب كــل ســورة حــسب موضوعها ، وهكذا فى كل سورة .

الفصل الثانى : سورة العصر .

الفصل الثالث : الماعون .

الفصل الرابع : الكافرون .

الفصل الخامس : القارعة ، ثم الخاتمة ، وهى لأهم نتائج البحــث ، وثبــت بأهم المصادر والمراجع ، وقد ألحقت بالبحث ملحقين أظن أنهما يهمان الباحثين ، وربما يهيئ الله باحثا لكتابة بحث بعنوان (الأسماء الحسنى فى الذكر الحكيم ــ مواقعها وسياقاتها ــ و أسرارها) الملحق الأول بعنــوان : تفــسير أسمــاء الله الحسنى الواردة فى القرآن الكريم ، وقد اعتمدت فيه على الكتب المتخصصة فى هذا الباب ، الملحق الثانى بعنوان : أسماء الله الحسنى الواردة فى القرآن الكــريم وعدد مرات ورود كل منها فى كل سورة ، ثم فهرس الموضوعات .

هذا ، ولن أحدثك عن مشقة البحث فربما تبصر ذلك على صـــفحاته ، وسترى أننى كنت أبصر تراكيب السورة فى ضوء أشباهها فى الـــذكر الحكـــيم كله ، حتى أضع اليد على خصائص السورة ، وسمات تراكيبها ، والـــتمس لى عذرا ، واعلم أنى قد بذلت الوسع ، فإن يكن توفيق فذاك عطـــاء مـــن الله لا يقادر قدره ، و إن يكن غير ذلك فمن عجزى وتقـــصيرى ، و إن رحمـــة ربى أوسع لى ، وثقتى بفضله ــ سبحانه ــ عظيمة ، وإنى أستغفر الله العظيم ، و إن الله غفور رحيم ؛ لما كان من زلل أعوذ بالله أن أكون قـــصدت إليـــه ، وقـــد احتطت فى كل ما كتبت بإضاءات الأئمة ، والحمد لله أولا و آخرا ، وصـــلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه و أمته .

إبراهيم صلاح الهدهد

التـــمـــهيـــد

حديث القرآن عن الأسماء الحسنى

ورد الحديث عن الأسماء الحسنى فى القرآن الكريم فى أربعة مواطن على النحو التالى : ـــ

قال : ـــ تعالى ـــ (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الـــذين يلحـــدون فى أسمائه . . .) (الأعراف / ١٨٠)

قال : ـــ تعالى ـــ (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فلـــه الأسمـــاء الحسنى . . .) (الإسراء / ١١٠)

قال : ـــ تعالى ـــ (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . . .) (طه / ٨)

قال : ـــ تعالى ـــ (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى . . . . (الحشر / ٢٤)

وقد ذكروا أن معنى (فادعوه بها) " أى اطلبوا منه بأسمائه فيطلب بكل اسم ما يليق به تقول : يا رحيم ارحمنى ، يا حكيم احكـــم لى . . . قـــال ابـــن العربى : وهكذا رتب دعاءك تكن من المخلصين " ([1])

ويكشف بعضهم عن أهمية أسماء الله الحسنى عند قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) (البقرة / ٣١) فيقول : " أول ما بدأ من العلـــم أسمـــاؤه ـــ

([1]) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٠٦ وما بعدها ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦ م .

تبارك وتعالى " ([1]) ويكشف عن خصوصية لفظ الجلالة ما قاله بعض العلماء : " اسمه الله ؛ لأنه تفرد بهذا الاسم ، فلم يسم هذا الاسم شئ مـــن الخلـــق ، ولم يوجد هذا الاسم لشئ من الأشياء ، ووجدنا غيره من أسمائه الحـــسنى نعوتـــا ، وصفات لهذا الاسم الواحد ، و إنما جاز أن يقال لها أسمـــاء ، وهـــى صـــفات ونعوت ؛ لأن النعت يقوم مقام الاسم ، ويكون خلفا منه . . . فهـــذا الاســـم مستول على الأسماء كلها أعنى ــ الله عز وجل ــ و إليه تنسب الأسماء كلها ، قال : ــ عز وجل (ولله الأسماء الحسنى) فنسب إلى هذا الاسم الأسماء كلها ، والبر والفاجر انقادوا له بهذا الاسم كرها أو طوعا ، وتـــسمى النـــاس بـــسائر الأسماء ، ولم يتسموا بهذا الاسم " ([2]) وهو ما وضحته الآيات التى تحدثت عـــن الأسماء الحسنى ، حيث جاء لفظ الجلالة قطب الحديث فى الآيات كلها تأمـــل (ولله الأسماء الحسنى ــ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ــ قل ادعـــوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى ــ هو الله الخالق . . .)

هذا ، وقد وردت أحاديث تحدد عدد أسماء الله الحسنى من ذلك مـــا روى من أبا هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله : ــ صلى الله عليـــه وسلم " إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخـــل الجنـــة ، وهو وتر يحب الوتر " ([3]) وقد جاءت رواية فى الترمذى تعدد الأسماء الحسنى ،

([1]) الزينة فى الكلمات العربية الإسلامية للرازى ٨ .

([2]) السابق ١٢ .

([3]) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الشروط حديث رقم ٢٥٣١ ، وكتاب التوحيد حديث رقم ٦٨٤٣ ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء حديث رقم ٤٨٣٦ ، والترمذى فى جامعه كتاب الدعوات حديث رقم ٣٤٢٨ ، ورواه ابن ماجة فى سننه كتاب الدعاء حديث رقم ٣٨٥٠ ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده كتاب باقى مسند المكثرين حديث رقم 7189 .

حيث زاد بعد قوله : (يحب الوتر) " هو الله ، الذى لا إله إلا هو ، الـــرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الـــرزاق ، الفتـــاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفـــور ، الـــشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكـــريم ، الرقيـــب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميـــت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القـــادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، الـــبر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجـــلال و الإكـــرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النـــور ، الهـــادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور " ثم قال الترمذى هـــذا حـــديث غريب ([1]) وهو أحسن الروايات فى هذا الموضوع ، وهناك روايات أخـــرى لا داعى لذكرها .

([1]) رواه الترمذى فى جامعه كتاب الدعوات حديث رقم ٣٤٢٩ ، ورواه ابن ماجة فى سننه كتاب الدعاء حديث رقم ٣٨٥١ .

الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى الذكر الحكيم

الاسم	عدد مرات الورود	الاسم	عدد مرات الورود	الاسم	عدد مرات الورود	الاسم	عدد مرات الورود
الله	٢٧٢٩	المهيمن	١	الفتاح	١	الملك	٤
الآخر	١	البر	١	الخالق	٨	اللهم	٥
الواسع	٧	البصير	٥٢	الباطن	١	التواب	١١
الجبار	١	المتكبر	١	النصير	٢٤	الأحد	١
المقيت	١	المجيب	١	الحافظ	١	الحفيظ	٣
الحق	٩	الحليم	١١	المحيط	٩	الكبير	٥
الوكيل	١٣	الصمد	١	الأول	١	الودود	٢
المحيى	٢	الحكيم	٩٧	الحميد	١٧	الحى	١٤
الخبير	٤٥	الخلاق	٢	اللطيف	٧	الولى	١٤
الرحمن	٥٧	الرزاق	١	الرقيب	٣	الشاكر	٢
ذو الجلال و الإكرام	٢	الرحيم	١٢٥	الرازق	٦	مالك الملك	١
المولى	١٢	المؤمن	١	الظاهر	١	المتعالى	١
السميع	٤٦	الشهيد	١٨	المصور	١	العظيم	٥
العليم	١٦١	الشكور	٢	الوهاب	٣	السلام	١
البديع	٢	العلى	٩	العزيز	٨٦	الأعلى	٢
الغفور	٩١	الغفار	٥	الغنى	١٧	الرؤوف	١٠
الكريم	٣	القادر	١	القدير	٤٥	المقتدر	٣
القدوس	٢	القاهر	٢	القهار	٦	القيوم	٣
القوى	٩	الهادى	٢	البارئ	٣	العفو	٥
الواحد	٦	المتين	١	المجيد	٢	الحسيب	٣

من لطائف مواقع أسماء الله الحسنى فى الكتاب والسنة وكلام العرب

أشار السلف إلى لطائف فى مناسبة الأسماء الحسنى لسياقها الـــذى وردت فيه خذ من ذلك ما قاله السهيلى فى قوله : تعالى ـــ (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . .) (النساء / ١١) " وجاء بالاسم الظـــاهر ، ولم يقل : أوصيكم ، و لا يوصيكم ، كما قال (نتلو عليك . ..) (القصص /٣) و (نقص عليك . . .) (الأعراف / ١٠١) لأنه أراد تعظيم هذه الوصـــية ، والترهيب من إضاعتها ، كما قـــال : (يعظكـــم الله) (النـــور / ١٧) و (يحذركم الله نفسه) (آل عمران / ٢٨) فمتى أراد تعظيم الأمر جـــاء بهـــذا الاسم ظاهرا ؛ لأنه أهيب أسمائه ، و أحقها بالتعظيم " [1] وهو المناسب لعظـــم الأمر وجلاله ، وما يترتب على الخلل به من الفساد فى الدنيا والدين .

ومنه أيضا ما ذكر البقاعى فى مناسبة وقوع (الرحمن الرحيم) بعـــد رب العالمين ، وقوله : ـــ تعالى (الحمد لله رب العالمين) (الفاتحة / ١ ، ٢) حيـــث قال : " ولما كانت مرتبة الربوبية لا تستجمع الصلاح إلا بالرحمة ، أتبع ذلـــك بصفتى (الرحمن ، الرحيم) ترغيبا فى لزوم حمده ، وهى تتضمن تثنية تفصيل ما شمله الحمد أصلا " [2] وقال عند قوله : ـــ تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق

---

[1] الفرائض وشرح آيات الوصية للسهيلى ٢٩ ، ٣٠ تحقيق د/ محمد البنا ط جامعة قار يونس ١٤٠٠هـــ .

[2] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ١ / ١٤ ، ط دار الكتب العلمية بيروت

فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شئ قـــدير) (البقـــرة / ١٠٩) قال ؛ معللا للإظهار فى موضع الإضمار (إن الله على كل شئ قدير) " ولما كان النصر وهم فى القلة والضعف بحال عظيم وقوة عـــدوهم وكثـــرقم أعظم مستبعدا قال (إن الله) و أظهر فى موضع الإضمار ؛ تحقيقـــا للبـــشرى بالإيماء إلى استحضار ما يدل عليه هذا الاسم الأعظم من صـــفات الجـــلال و الإكرام (على كل شئ قدير) ففى هذا الختم بشرى للمؤمنين بتقديرهم ، كما أن فى الختم بالعلم بشرى بتعليمهم ، وفى إفهامه نذارة للكافرين بمقابل ذلـــك " ([1]) وغير ذلك كثير مما هو منثور على صفحات التفاسير .

وانظر تتابع أسماء الله الحسنى ، ودلالته فى رسالته ـــ صـــلى الله عليـــه وسلم ـــ إلى النجاشى ملك الحبشة " سلم أنت فإنى أحمد إليـــك الله الملـــك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، و أشهد أن عيسى بـــن مـــريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة ، فحملت بعيسى ، فحملته مـــن روحـــه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، ونفخه ، و إنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، و أن تتبعنى ، وتؤمن بالذى جـــاءنى ، و إنى أدعـــوك وجنودك إلى الله ـــ تعالى ـــ فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى ، والـــسلام على من اتبع الهدى "

وقد كشف شيخنا الدكتور أبو موسى عن سر تتابع الأسماء الحسنى هنا فقال : " وتعديد هذه الأسماء الحسنى (الملك ، القدوس ، الـــسلام ، المـــؤمن ،

([1]) نظم الدرر ١ / ٢٢٠ .

المهيمن) ضرب من الثناء والحمد ، ثم إن في اختيارها ضربا من الملاءمة الخفية ، فقد ذكر من الكمالات المطلقة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ؛ ليشير بذلك إلى أنها و إن تحققت أشباهها في خلقه من ملوك لهم ملك وهيمنة وقداسة ؛ فإنها لا تتعدد ، فالملك المطلق الذى لا يند عنه شئ لا يتسع الوجود إلا إلى نوع واحد منه ؛ لأن الملك الثانى إما أن يكون فى صورة الملك الأول أو لا ، فإذا كان فى صورته فهو ـــ أى : الثانى ـــ ملك ناقص ، و إذا لم يكن فى حوزته فالأول ملك ناقص هكذا يقرر العقل ، ووراء هذا إيحاء للنجاشى بقدره ، و أن يضع نفسه الوضع الصحيح فى الوجود المربوب ، و أن يصغى إلى الصوت الأعلى ، والملك الذى ليس فوقه ملك ، والمهيمن الذى ليس فوقه هيمنة " ([1])

وترى اسم الجلالة أيضا يقع حين تخويف العدو ، و يأتى فى سياقات التهديد و الوعيد ، خذ من ذلك ما كتبه خالد بن الوليد ـــ رضى الله عنه ـــ إلى مرازبة فارس مع ابن نفيلة الغسانى " الحمد لله الذى فض حزمتكم ، و فرق جمعكم ، و أوهن بأسكم ، وسلب ملككم ، و أذل عزكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا ، فابعثوا بالرهن ، واعتقدوا منا الذمة ، و أجيبوا إلى الجزية ، و إلا ، والله الذى لا إله هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا " ([2]) تأمل كيف أضاف إلى الكلام هيبة وجلالا ، حينما افتتحه بما يسند انتصارات المسلمين لله ، و أنه إذا ما كان النصر من

([1]) قراءة فى الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ٢٧٥ ، ٢٧٦ ط دار الفكر ١٩٧٨ .

([2]) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ١٠٢ ، تحقيق محمد شاهين ط المكتبة العصرية بيروت ١٤١٩ هـ .

الله ، فهو الثابت الدائم المعز ، ثم ختم كلامه بجملة القسم باسم الجلالة الـــذى يضاعف من قدر التهديد ، ونلحظ أن واسطة العقد فى كلامه ، هـــو طلـــب الرهن والجزية ، غير أنه مهد لمطلبه بما يحققه ، و أتبعه بما يحثهم على الإسراع فى إنجاز ما طلب .

سبب النزول ومكانه من المقام

يعد سبب النزول إضاءة للمقام المباشر لنزول السورة الكريمة ، و لايمكننا النظر فى تراكيب السورة الكريمة بمنأى عن مقامها المباشر ، مع الأخذ فى الاعتبار أن سبب النزول يشكل جزءا من المقام فى البيان القرآنى ، و ذلك أن مقام آيات الذكر الحكيم وسوره تتخطى حواجز الزمن ؛ لتطابق ما حدث ، وما يحدث ، و ما سيحدث ، وهذا من إعجاز الذكر الحكيم ، فزمن الآيات القرآنية زمن أبدى خالد ، و لايمكن عقد الآيات بسياقها الزمانى ، والوقوف بها عند ذلك الزمان بحال من الأحوال ، ونحن هنا ندرس البيان القرآنى على نور من هذا الفقه ؛ لنبين كيف طوت التركيب القرآنية الزمن كله لتجعله سياقا زمنيا لها .

إضاءات السلف فى هذا الباب

نحن حينما نتناول النص الشريف على هذا النحو إنما نستقى هذا المنهج من القرآن الكريم ذاته ، و كأنه يدل على طريقة الدرس ، ويهدى إلى سبيل التناول ، حين نقرأ هاتين الآيتين الكريمتين ، قال : ـ تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) (الإسراء / ١٠٦) و (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك و رتلناه ترتيلا) (الفرقان / ٣٢) و نضيف إليهما قوله : ـ تعالى (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) (الضحى / ١ : ٣) وقوله تعالى : (و إن

كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره و إذا لا تخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) (الإسراء / ٧٣ ، ٧٤)

حين ننعم النظر فى هذه الآيات الكريمات اللاتى تحدثنا عن أسرار تنجيم القرآن حسب الحوادث ، نقف على أهمية أسباب التزول فى إضاءة الــنص القــرآنى ، ومن المعلوم أنه ــ صلى الله علبه وسلم ــ كان يعيش حربا ضروسا ، وكـــان يلاقى من الأذى والمجابهة ما رفعه صبره عليها إلى الدرحة العليا فى مــصاف أولى العزم ــ صلوات الله عليهم أجمعين ــ فكانت الآيات تتزل دفاعا عنه حينــا ، ووعيدا لأعدائه أحيانا أخر ، فكان لذلك أثر بالغ فى تثبيت فؤاده ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ فالآية الأولى تكشف عن مقامات يقتضيها تتزيل القرآن بحــسب الحوادث ، وقد جاءت مقرونة بلام التعليل (لتقرأه على الناس على مكـــث) قال علماؤنا : " والمعنى أنزلناه منجما مفرقا ؛ لما فى ذلك من المصلحة ، و لـــو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا ولم يطيقـــوا " ([1]) فـــالتفريق إذن مقتضى مقام ، وهو مما يوجب النظر فى هذه المقامات .
وذكروا فى آية الفرقان أيضا أنه فرق " ليكون أوعى للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ و أيسر على العامل به " ([2]) و أن " إنزاله مفرقا منجما على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له ، وفهمك لمعانيه ، وذلك مـــن أعظـــم أســـباب التثبيت "([3]) وشئ آخر ذكره النحاس حيث قال : " وكان ذلك أى : إنـــزال القرآن منجما من أعلام النبوة ؛ لأنهم لا يسألونه عن شئ إلا أجيبـــوا عنـــه ،

([1]) فتح القدير للشوكانى ٣ / ٣٧٧ .
([2]) معالم التتزيل للبغوى ١ / ٨٣ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥ .
([3]) فتح القدير ٤ / ١٠٦ .

وهذا لا يكون إلا من نبي فكان ذلك تثبيتا لفؤاده "([1]) و إذا استحضرنا الآية الرابعة (و لولا أن ثبتناك . . .) لتبين لنا أهمية تنجيم القرآن العزيز ، كذلك لو تدبرنا الآية (و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا . . .) (الفرقان / ٣٣) ــ وقد جاءت عقب آية الفرقان ــ لكشف لنا عن علة من علل التنجيم أيضا ، وهو من أعظم التثبيت ، فالذكر الحكيم إذن يشرح نفسه حين يبين لنا أن فى تنجيم القرآن قهرا لأعداء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما دلت الآية السابقة ، والتنجيم إذن حماية لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) والتنجيم أيضا بيان لمواصلة التأييد له (الضحى والليل إذا سجى) .

وقد ذكر البيضاوى ــ رحمه الله ــ كلمة تكتب بماء التبر فى بيان علة تنجيم القرآن الكريم ، حيث قال : " و لأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص فى المعنى ، و لأنه إذا نزل منجما ، وهو يتحدى بكل نجم ، فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه ، و لأنه إذا نزل به جبرائيل حالا بعد حال يتثبت به فؤاده ، ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ، ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية ؛ فإنه يعين على البلاغة " ([2]) و ما أجل ما علق به الشيخ زادة على قوله هذا بقوله : " و لأنه إذا نزل مفرقا منجما بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة بهم حصل فائدة جليلة لا تحصل على تقدير نزوله دفعة واحدة ، فإنه لو نزل دفعة واحدة لما حصل من الدلالات اللفظية ، وفصاحة الألفاظ الدالة على المدلولات ، بخلاف ما إذا نزل نجوما ، و لا شك أن

([1]) السابق ٤ / ١٠٦ .

([2]) أنوار التنزيل ٣ / ٤٥١ .

انضمامها إليها يعين على البلاغة ، و بالجملة : إنزال القرآن مفرقا منجما فضيلة خص بها نبينا من سائر النبيين " ([1]) و ما قاله الشيخان فى صميم مقاصد الدرس البلاغى .

و قال ابن دقيق العيد : " بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن ، وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب " ([2]) وعلى الجملة : إن نزول القرآن منجما مفرقا فيه تثبيت للرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ و للمؤمنين ، وكل ما ذكره العلماء هو تفصيل لأشكال هذا التثبيت وطرائقه ووسائله ، وقد رأينا أن دراسة النص القرآنى فى ضوء سبب النزول له أهمية بالغة فى الكشف عن أسرار النص القرآنى وسبر أغواره ، و سوف ترى على صفحات البحث كيف طبق علماؤنا هذا المنهج خير تطبيق .

([1]) حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوى ٣ / ٤٥١ ، ٤٥٢ .

([2]) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١ / ٣٨ .

المقـــــام الــعـــام

إن البيان القرآني ليتسامى فوق الزمن ، وقد تنزل ملائما للماضي والحاضـــر ، والمستقبل وما كان ، وما يكون ، لأنه مفارق لبيان البشر ، والمعتـــاد في بيـــان البشر هو ارتباط الإبداعات بسياقها الزماني وسياقها المكاني ، أما البيان القرآني فسياقه الزماني هو الزمان كله ، وسياقه المكاني هو الكون كله ، وهو ضرب من ضروب إعجازه ، يحس كل جيل أن خطاب القرآن له وحده ، وكل مقـــيم في أي بقعة من الكون يحس أن القرآن خطاب له وحده ، وقد نبه علماؤنـــا إلى هذا في كثير من أقوالهم ، و كأنه أمر تهدى إليه الفطرة ، ويقف عليـــه النظـــر الصحيح .

خذ من ذلك مثلا قوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حـــرثكم أنى شـــئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) (البقـــرة / ٢٢٣) وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أنه قد " كانت اليهـــود تقـــول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول ، فنزلت هذه الآيـــة ، وذلك أنه كان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حـــرف ، وذلـــك أستر ما تكون المرأة ، وكان القرشيون يـــشرحون النـــساء شـــرحا منكـــرا ، ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينـــة ، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليـــه ، و قالت : إنما كنا نؤتى على حرف ، فاصنع ذلك ، و إلا فاجتنبني حـــتى شـــرى أمرهما ، فبلغ ذلك النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنزل الله ــ عز وجل ــ (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع

الولد " ([1]) هنا لاءمت الآية مقامها حينئذ أحسن ما تكون الملاءمة ، وليس من همنا هنا أن نشرح هذه الملاءمة ، ولكنا ننبه إلى أنها مع ملاءمتها حال النزول ، هي ماضية إلى أن تقوم الساعة فى استباحة الاستمتاع بالزوجة من كل قبيل مادام محل الاستمتاع موضع الولد ، وهو الملائم أحوال الناس و أمزجتهم المتباينة ، و أى دين كهذا الدين الذى لم يترك شاردة و لا واردة إلا نبه إليها ونظمها وبينها خير بيان ؟ !

وخذ منه أيضا قوله : ــ تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . . .) (البقرة / ٢٠٤ ، ٢٠٦) وقد ذكــر السدى وغيره أنها نزلت فى الأخنس بن شريق ، وقد كان رجلا حلو القول والمنظر ، فجاء إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأظهر الإسلام ، وقال : والله يعلــم أنى صادق ، ثم هرب بعد ذلك ، فمر بزرع لقوم من المسلمين وبحمر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحمر ، أو أنها أنزلت فى قوم من المنافقين ، أو غير ذلك " ([2]) وقد لاءمــت الآية حال النزول أحسن ما تكون الملاءمة ، وهى مع ذلك تلائم كل زمان ، تقع فيه مثل هذه الواقعة من واحد كانت أم من جماعة ؛ لذلك قال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء : نزلت فى كل مبطن كفرا أو نفاقا أو كذبا أو إضرارا ، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك فهى عامة " ([3]) وهذا كما ذكرت من ضروب إعجاز القرآن الكريم ، ولو تدبرنا وقائع الزمان لظهر لك أن كل ما نزل القرآن منجما يتكرر عبر كــل زمان ، ويقع فى كل جيل ، واستذكار حال النزول يضع اليد على مواطن المطابقة على أحسن حال ، و أهدى سبيل .

([1]) تفسير القرطبى ٣ / ٦١ ،ط دار الكتب العلمية بيروت وتفسير ابن كثير ١ / ٢٤٧ ط دار الجيل بيروت دون تاريخ .

([2]) تفسير القرطبى ٣ / ١٢ ، وتفسير ابن كثير ١ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

([3]) تفسير القرطبى ٣ / ١٢ ، وتفسير ابن كثير ١ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

الخلاف فى البسملة وهل هى آية من كل سورة ؟

من ضرورات هذا البحث إيراد أقوال الأئمة فى البسملة ، وقـد اتفـق الأئمة على أنها بعض آية من سورة النمل ، ثم اختلفوا بعد ذلك على أقوال: ـ
أولا : أنها آية مستقلة فى أول كل سورة إلا براءة ، أو من كل سورة كتبت فى أولها ، وقد قال بذلك ابن عباس ، وابن عمر وابن الزبير و أبو هريرة وعلـى ، ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهـرى والـشافعى و أحمد بن حنبل فى رواية عنه ، و إسحق بن راهويه و لأبو عبيد القاسم بن سلام ، ولهذا الفريق حججه .

ثانيا : أنها بعض آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك والشافعى فى أحد قوليه ، وقد احتجوا بما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قـال : بينـا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت علـى آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر . . .) ([1])

ثالثا : أنها آية من سورة الفاتحة دون غيرها ، وهو رأى الشافعى فى أحد قوليـه وقراء الكوفيين ، وقد احتج بما رواه الدار قطنى بسند عن أبى هريرة ـ رضـى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : إذا قرأتم (الحمد لله

([1]) الحديث رواه مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة حديث رقم ٦٠٧ ، والنسائى فى سننه كتاب الافتتاح حديث رقم ٨٩٤ ، و أبو د اود فى سننه كتاب السنة ٤١٢٢ .

رب العالمين) فاقرؤوا : بسم الله الرحمن ؛ إنها أم القرآن ، و أم الكتاب ، والسبع المثانى ، و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها .

رابعا : أنها كتبت للفصل لا أنها آية ، وهو قول مالك ؛ احتجاجا بما روى عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — لا يعرف فصل السورة حتى ينزل (بسم الله الرحمن الرحيم) .

الصحيح من هذه الأقوال : هو قول الإمام مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد ، و إنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه ، قال ابن العربى : ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها ، والقرآن لا يختلف فيه ، و الأخبار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ، و لا غيرها إلا فى النمل وحدها ، وقد رد على إثباتها فى المصحف بأن ذلك للتبرك بها ، كما قد اتفقت الأمة على كتابتها فى أوائل الكتب والرسائل ، أو أنها لو كانت من السور ، ومن فاتحة الكتاب لعرفته الكافة بتوقيف من النبى — صلى الله عليه وسلم — أنها منها ، كما عرفت مواضع سائر الآى ، ولم يختلف فيها ، ورد على الروايات المخالفة لهذا بأن الفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر و الاستدلال ، و إنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى ، ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أول كل سورة ،فدل على أنها ليست بآية من كل سورة "([1])

([1]) ينظر أحكام القرآن للجصاص ١ / ٧ : ١٣ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١ / ٦٦ : ٦٩ ، وتفسير ابن كثير ١ / ١٥ ، ١٦ ، الدر المنثور ١ / ٩ : ١٧ .

ثم إن هناك روايات كثيرة تصحح آراءهم منها ما رواه الإمام مالك بن بسنده عن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ أنه قال : قمت وراء أبى بكـــر وعمـــر وعثمان ، فكلهم كان لا يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إذا افتتح الـــصلاة " ([1]) وما ذهب إليه الإمام مالك هو الرأى المختار ، وهو ما عليـــه المـــصاحف ، وهو ما اختارته هذه الدراسة ، وعليه صح لنا أن تكون فى القرآن سور خاليـــة من الأسماء الحسنى .

([1]) موطأ الإمام مالك كتاب النداء للصلاة حديث رقم ١٦٤ .

الفصل الأول

سورة المسد

موقع السورة فى التزول ودلالته

سورة المسد هى السورة السادسة نزولا على هذا الترتيب (العلـــق ــــ القلم ـــ المزمل ـــ المدثر ـــ الفاتحة ـــ المسد) وحين نتأمل تحدر سياق الـــتزول من أول سورة العلق لا ينقضى منا العجب اقرأ (كلا إن الإنسان ليطغـــى) (العلق /٦) و ما صنعه أبو لهب صورة من هذا الطغيان ، وقد ذب الله عن نبيه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقال : (كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) (العلق / ١٥) وهو وعيد بالتباب ، ثم تحداه ربنا (فليدع ناديه سندع الزبانية) (العلق / ١٧ ، ١٨) ، ثم اقرأ فى سورة القلم قصة الوليد بن المغيرة وفضيحته (عتل بعد ذلك زنيم) (القلم / ١٣) ثم اقرأ وعيده و أمثاله (سنسمه على الخرطوم) (القلم / ١٦) ، ثم تأمل هذه الآية وما تتزله من الاطمئنان علـــى قلبـــه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وما تتزله بقلوب الأعداء من الفزع (فـــذرنى ومـــن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون و أملى لهم إن كيـــدى متين) (القلم / ٤٤ ، ٤٥) ، ثم تأتى سورة المزمل آمرة الحبيب ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بالصبر (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا هجرا جميلا) (المزمل / ١٠) ثم يعاود القرآن تهديد أعدائه ـــ صلى الله عليه وســـلم (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غـــصة وعذابا أليما) (المزمل / ١١ : ١٣) ثم تأتى سورة المدثر (يأيها المـــدثر قـــم فأنذر) (المدثر / ١ ، ٢) فيصرخ ـــ صلى الله عليه استجابة لأمر ربه علـــى

جبل الصفا ، ويحدث من أبي لهب ما يأتي ذكره ، فتنزل سورة المسد تجاوبا مـــع سياق تثبيت نبيه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وتهديد عدوه .

ولعل من لطائف المناسبة بين السور في ترتيب النزول أن نقـــول إن ســـورة المسد نزلت بعد سورة الفاتحة ، وفي سورة الفاتحة قوله تعالى : " إياك نعبد وإياك نستعين " وفيها " اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت علـــيهم غـــير المغضوب عليهم ولا الضالين " فجاءت سورة المسد استجابة لطلـــب المـــؤمنين العون ، وهي تتجه بتراكيبها لتثبيت الأولياء وترهيب الأعداء ، وقـــد كانـــت الرسالة حين نزول السورة أمس حاجة إلى مثل هذا اللون من البيان .

موقع السورة في الكتاب العزيز ودلالته

من بدائع الذكر الحكيم أنك لا تجد تعاندا بين موقع الـــسورة في الـــنزول ، وموقعها في المصحف الشريف ، وإنما تجد تعانقا بين الموقعين ، ألا تبـــصر أنهـــا وقعت في الكتاب العزيز بعد سورة النصر ، وكأنها جاءت عقبها دلـــيلا علـــى نصر الله ـــ تعالى ـــ أولياءه ، ودحر أعدائه ، فهي آية مـــن آيـــات النـــصر ، وعلامة من علامات الفوز ، ومن لطائف ارتباطات السورة بما قبلها ما ذكـــره ابن الزبير ـــ رحمه الله ـــ حيث قال : " هذه السورة وإن نزلت علـــى ســـبب خاص في قصة معلومة ، فهي مع ما تقدمها ، واتصل بها في قوة أن لو قيل : قد انقضى يا محمد عمرك ، وانتهى مما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك ، وأديت ما تحملته ، وحان أجلك ، وأمارة ذلك دخول النـــاس في ديـــن الله أفواجـــا ، واستجابتهم بعد تلكئهم ، و الويل لمن عاند ، وعدل عن متابعتك ، وإن كـــان أقرب الناس إليك ، فقد فصلت سورة " قل يا أيها الكافرون " بـــين أوليائـــك

وأعدائك ، وبان بها حكم من اتبعك ومن عاداك ، ولهذا سماها ــ عليه السلام ــ البريئة فى النفاق ، وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان ، وأن القربات غير نافعة و لامجزية شيئا إلا مع الإيمان " ([1])

أما الفخر الرازى ــ رحمه الله ــ فإنه يعد سورتى النصر والمسد جوابا عن سؤال يطرح نفسه عقب سورة الكافرون وهو " كأنه قيل : إلهنا وسيدنا ، ما ثواب المطيع ، وما عقاب العاصى ؟ فقال : ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستيلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى العقبى ، كما دلت عليه سورة " إذا جاء نصر الله والفتح " والعقاب العاصى فهو الخسار فى الدنيا والعقاب العظيم فى العقبى ، كما دلت عليه سورة تبت " ([2])

وقد كشف السيوطى ــ رحمه الله ــ عن علة تقديم سورة النصر على سورة المسد بقوله : " وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللا بقوله ولى دين) ويكون الوعيد راجعا إلى قوله : (لكم دينكم) على حد قوله : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم . . .) (آل عمران / ١٠٦) " ([3]) أى على طريقة اللف والنشر المرتب توسعا فى المصطلح ، ثم أشار إلى التعانق بين السور فى ترتيب المصحف الشريف على الرغم من التباعد بين السورتين فى زمن النزول بقوله : " فتأمل هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور ، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة ، والكافرون من أوائل ما نزل بمكة ، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره " ([4])

([1]) البرهان فى تناسب سور القرآن لابن الزبير ٢٤٦ .

([2]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٧٥٠ .

([3]) تناسق الدرر فى تناسب الآيات والسور ١٦٠ .

([4]) السابق ١٦٠ .

وهذه الكلمات من أئمتنا شاهد صدق على أنهم كانوا يتعاملون مـــع القـــرآن العظيم على أنه كله سياق واحد ، وأنه لا يجوز النظر إلى الآية بمعزل عن سياقها الجزئى (السورة) وسياقها الكلى (القرآن العظيم كله) .

حال النزول

روى أن نزولها كان فى السنة الرابعة من البعثة ([1]) وهذا يعنى أن نزولها كـــان فى بواكير الدعوة ، وبداية المجاهرة بها ، وهى فترة اشتداد الأذى للرســـول ــــ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ــ وأصحابه ــ رضى الله عنهم أجمعين .

وفى نزولها فى هذا الوقت زجر لأبى لهب وأمثاله من أساطين الشرك ، وتأييد له ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه ، وتطمين لهم بالنصر ، فهـــذا الـــسياق الزمنى هو المقام المباشر للسورة الكريمة ، وما فى السورة من تراكيـــب ودلالات هو مقتضى لهذا المقام ، فالمقام الذى نزلت فيه السورة هو قلة قليلة من المؤمنين المستضعفين ، وطائفة أخرى من الجبابرة لها من المال والقوة والسلطة ما يعينـــها على دحر هؤلاء الجبابرة ، وأمثال هؤلاء لايرد تجبرهم إلا القوة والمجابهة .

هذا ويعد سبب النزول هنا أكبر كاشف عـــن حـــال الـــنزول ، وقـــد روى النيسابورى وغيره عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : صعد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات يوم الصفا ، فقال : يا صباحاه ، فاجتمعت إليـــه قريش ، فقالوا له : مالك ؟ قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم ، أو ممسيكم ، أما كنتم تصدقون ؟ قالوا : بلى ، قال : فإنى نذير لكم بـــين يـــدى

([1]) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٩

عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا دعوتنا جميعا ؟ فـــانزل الله ـــ عـــز وجل ـــ (تبت يدا أبي لهب . . .) .

وفى رواية عن ابن عباس أيضا قال : قال رسول الله : ـــ صلى الله عليه وســـلم ـــ يا آل غالب ، يا آل لؤى ، يا آل مرة ، يا آل كلاب ، يا آل عبد منـــاف ، يا آل قصى إنى لا أملك لكم من الله منفعة ، ولا من الدنيا نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله ، فقال أبو لهب : تبا لك لهذا دعوتنا " ([1])

وهناك روايات أخرى كثيرة لا يخرج مضمونها عن هاتين الـــروايتين ، والـــذى نستخلصه من هذا أن كل الروايات لم تخل من أن أبا لهب قال له : ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ تبا لك ، على الرغم من أن كثيرا من أهل مكة كانوا موجودين حين ناداهم الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ولم يرد أن أحدا منهم خاطبـــه خطاب أبى لهب ، ولذلك دلالته فى اختصاصه دون سواه بالخطاب .

التصور الجملى للسورة

السورة كلها تدور حول أبى لهب ووعيده بالخسار فى الدنيا والهلاك فى العقبى ، هذا ما يفضى إليه التصور الجملى للسورة الكريمة ، قـــال ابـــن عاشـــور : " أغراضها زجر أبى لهب على قوله : تبا لك أ لهذا جمعتنا ؟ ووعيده على ذلـــك ، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها وبغضها النبى ـــ صلى الله عليه وسلم" ([2])

([1]) أسباب النزول ٢٥٠ ط دار الفكر .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٠ .

تراكيب السورة فى ضوء حال النزول

حين نتأمل السورة الكريمة نجدها مكونة من ثلاث جمل جاءت فى فقرتين ، الفقرة الأولى تتحدث عن عقابه فى الدنيا ، والأخرى تتحدث عن عقابه وزوجه فى الآخرة ، وكل جملة مركبة من كلمات ، وعلى الرغم من قصر السورة الكريمة نجدها اشتملت على ألفاظ لم تقع فى غيرها ، وهذه الألفاظ الخاصة بالسورة الكريمة هى معالم دالة على المقصد والغرض ، الذى تختص به السورة دون سواها ، وهذه الألفاظ هى (أبى لهب ـــ ذات لهب ـــ حمالة ـــ جيدها ـــ مسد) .

ونجد ألفاظا أخرى فيها نادرة الورود فى الذكر الحكيم وهى (تبت) فقد وردت فى موضعين آخرين من الذكر الحكيم ، لكن بغير هذه الصيغة ، وإنما وردت مصدرا (وما زادوهم غير تتبيب) (هود / ١٠١) (وما كيد الكافرين إلا فى تباب) (غافر / ٣٧) كذلك نجد أن كلمة (لهب) لم ترد إلا فى سورة المرسلات (لا ظليل ولا يغنى من اللهب) (المرسلات / ٣١) كذلك كلمة (الحطب) لم ترد إلا فى موضع واحد من القرآن الكريم غير هذا الموضع (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) (الجن / ١٥) كذلك نلحظ أن السورة خلت من أسماء الله الحسنى ، بل ومن ضمير يعود عليها ، ولكل ذلك دلالته التى يجب الاجتهاد فى الكشف عنها ما أمكننا ذلك .

(تبت يدا أبي لهب وتب) وما وراءه من الأسرار

سبق أن ذكرنا أن كل الروايات لم تخل من قول أبي لهب : تبا لك أ لهذا جمعتنا ؟ ومن دقة المطابقة أنه بادره بجنس كلامه فى صدر السورة ، غير أن النمط القرآنى جاء بلغة غير معتادة فى الوعيد ، إذ جاء بوعيده بصيغة الماضى ، لا بصيغة المستقبل كما جاء فى قول أبي لهب ، وفى هذا قطع وحتم بخسرانه وهلاكه ، وكأنه صار واقعا يخبر به ، وفى التعبير بالماضى إظهار لغير المتحقق فى صورة المتحقق زيادة فى الترهيب وإمعانا فى الزجر ، وقد فقه أبو لهب بيان القرآن ، وما يكتنزه التعبير من الدلالة على تحقق هذا الوعيد ووقوعه ، لذا جاء أنه لم يخرج لمعركة خشية أن يناله هذا الوعيد .

وقد نبه الأئمة إلى أنه آثر التباب على الهلاك تناسبا مع قول أبي لهب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبا لك ألهذا جمعتنا" ([1]) وفى هذا الافتتاح أيضا لطيفة أخرى أشار إليها ابن عاشور بقوله : " افتتاح السورة بالتباب مشعر بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد ، فذلك براعة استهلال ، مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم " ([2])

وهو المطابق للمقام أيضا ، هذا وقد شرط البلاغيون فى براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه مشعر بغرض الناظم . . . وأما براعة النثر فإنها مثلها إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة أو صدر الكتاب المصنف دالة على غرض المنشئ ، وإلا فليست براعة استهلال " ([3])

([1]) جامع البيان للطبرى ٣٠ / ٢١٨ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١٠ ، روح المعانى ١٥/ ٤٩٧ .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٠ .

([3]) خزانة الأدب لابن حجة الحموى ١/ ٣٠ ، ٤٠ .

ومن براعة الذكر الحكيم هنا أنه ألقى بغرضه فى صدر السورة مطابقة للمقـــام وملاءمة للحال ، وقد أشرنا إلى ما فى التعبير بـــ (تبت) من المطابقـــة ، ولـــو نظرنا فى نص الآية جملة لدلنا النظر على أن هذه الآية تلخـــيص لكـــل مـــا فى السورة الكريمة ، فهى تدل على الخسران التام ، وقد شرحت السورة من بعـــد ذلك وجوه هذا الخسران من عدم غناء المال والكسب عنه شيئا فى الخـــسران ، بل إن الخسران امتد إلى أقرب الناس إليه (زوجه) وهذه طريقة الذكر الحكيم فى كل سورة ، حيث يلقى بمقصد كل سورة فى صدرها ، ثم تكـــون الـــسورة كلها شرحا وتفصيلا لما فى صدرها ، وكأن صدر السورة بمثابة الجـــذر الـــذى تنبثق منه الشجرة بكل فروعها وأغصانها وأوراقها .

هذا وقد أشار البقاعى ـــ رحمه الله ـــ إلى لطيفة فى مفتتح هذه السورة ـــ و لا أحسب أن غيره وقع عليها فيما قرأت ـــ وقد هداه إليها نظره إلى الـــسورة فى ترتيبها ، فقد جاءت قبل سور مفتتحة بـــ (قل) فسأل نفسه سؤالا مؤداه : ما اللطيفة التى وراء عدم افتتاحه ـــ تعالى ـــ هذه السورة بـــ (قل) فقـــال : " وجعل خطاب هذه السورة عن الله ، ولم يفتتحها بـــ (قـــل) كأخواتهـــا ، لأن هذا أكثر أدبا ، وأدخل فى باب العذر ، وأولى فى مراعاة ذوى الرحم ، ولذلك لم يكرر ذكرها فى القرآن ، وأشد فى انتصار الله ـــ سبحانه وتعـــالى ـــ لـــه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأقرب إلى التخويف ، وتجويز سرعة الوقوع " ([1])

وأبصر أيضا أن هذا مطابق للمقام آنئذ ، فلم يكن لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن يجابه عمه بذلك ، وفى قول البقـــاعى : وأشـــد فى انتـــصار الله ،

([1]) نظم الدرر ٨/ ٥٦٨ ، وقد ذكر الفخر الرازى أن فى ذلك رعاية لقرابة العمومة١٦ / ٧٥٦ .

وأقرب إلى التخويف كشف عن دقة المطابقة فى التركيب القرآنى للحال الـــذى نزلت فيه السورة ، كأنه لو قال : قل تبت . . . لما طابق ذلك المقام .

وقد جاء المسند إليه هنا (يدا) بالتثنية ، وعبر باليد لأنها محـــل القـــدرة مـــن الإنسان ، وفى اختلالها اختلال أمره ، فإذا كان الاختلال فى اليدين ، فإن ذلك يكون أشد خسارا ، فقد صار لا قدرة له على إعطاء ولا منع ، ولا على جلب و لا منع ، هذا وإسناد (تب) إلى (يدا) جاء مقتضى حال ، فقد رووا أن أبا لهب بعدما قال : تبا لك . . . " أخذ بيديه حجرا ليرمى به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم " ([1]) وقد قال الآلوسى ــ رحمه الله ــ معلقا على ذلك " ومن هذا يعلم وجه إيثار التباب على الهلاك ونحوه مما تقدم وإسناده إلى يديـــه " ([2]) وقيل : إن أبا لهب أراد أن يرمى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحجر فمنعـــه الله من ذلك " ([3])

هذا ولفظ (يدا) مجاز ، وهذا من ثراء التعبير القـــرآنى ، والـــدلالات الـــتى تضيفها السياقات ، لأنه لما عطف عليه قوله تعالى : (وتب) دفـــع ذلـــك إلى تأويلات لهذا اللفظ ، فاليدان إما كناية عن الذات والنفس لما بينهما من اللزوم فى الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل ، ورد ذلك بأن مهيع كلام العرب فى التعبير ببعض الشئ عن كله أن يكون الكل يعدم بعدم هـــذا الجـــزء

([1]) روح المعانى ١٥/ ٤٩٧ .

([2]) السابق ١٥ / ٤٩٧ .

([3]) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٢٥ ، مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٣ .

كالرأس ، واليد ليست كذلك ، ورد بأن المراد بذلك الشرط أنه يعدم حقيقة أو حكما ، كما فى إطلاق العين على الربيئة " ([1])

وقد جاءت كذلك لتلائم كل الأحوال ، فهى إن كانت مجازا عن الذات فلها من الواقع آنئذ ما تطابقه ، وذلك لما روى من أنه حمل حجرا يريد أن يضربه به ، وإن كانت مجازا عن النعمة فلها من الواقع آنئذ ما تطابقه ، وذلك لما روى من أبا لهب كان يحسن إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — وإلى قريش ويقول : إن كان الأمر لمحمد فلى عنده يد ، وإن كان لقريش فكذلك ، فأخبر أنه خسرت يده التى كانت عند النبى — صلى الله عليه وسلم — بعناده له ، ويده التى عند قريش أيضا بخسران قريش وهلاكهم فى يد النبى — صلى الله عليه وسلم " ([2])

التعبير بـ (أبى لهب) وما فيه من المطابقة ، وما وراءه من اللطائف

اتسع قول الأئمة فى الكشف عن سر التعبير بأبى لهب ، وقد استشكل كثير منهم التعبير بالكنية ، وأن الكنية أولى بغير هذا المقام لما فيها من التعظيم جريا على عادة العرب فى مخاطباتها ، ويمكن إيجاز أجوبتهم فيما يلى : —

١ — أنها أشهر من اسمه فالبيان بها أقوى وأظهر .

٢ — أن اسمه عبد العزى ، وهو قبيح موجب للعدول عنه غيرة على العبودية أن تضاف إلى غير مستحقها .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٢٥ ، ٧٣٢٦ ، حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٨ ، وروح المعانى ١٥ / ٤٩٧ .

(٢) روح المعانى ١٥/ ٤٩٧ .

٣ ــ أنه كان يكنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فذكر بذلك تهكما بــه وبافتخاره بذلك .

٤ ــ أنه عبر بها لتجانس ذات لهب و توافقه لفظا ومعنى .

٥ ــ أنه يجوز أنه لم يعرف له اسم ، ولم يشتهر بكنيته ، فذكره بما اشــتهر بــه لزيادة تشهيره بدعوة السوء عليه .

٦ ــ أنه نقل أنه كان اسمه عبد العزى ، وهو كان عبد الله لا عبد العزى ، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع .

٧ ــ أن الله ــ تعالى ــ أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أبــا لهــا تحقيقا للنسب ، وإمضاء للفأل والطيرة التى اختارها لنفسه " ([1])

و الذى أبصره أن هذه التأويلات تتعانق و لا تتعاند ، وهو من ثــراء التعــبير القرآنى ، ويمكننى أن أضيف وجها آخر إلى هذه الوجوه لا أحــسب أن أحــدا أشار إليه ، وهو التناسب مع المقصد العام من السورة ، وهــو صــب الزجــر والوعيد على أبى لهب ، وقد أشرت سلفا إلى أنه من الألفاظ التى تعد من معــالم اختصاص السورة بمقصد (أبى لهب ــ ذات لهب ــ حمالة) وكلها تتجه نحــو الإهلاك والإحراق جزاء وعيده رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهــذا تناسب بديع لارتباط السورة بجذر واحد ، هو المعنى الذى تدور عليه ، والهدف

([1]) ينظر بحر العلوم ٣ / ٥٢٣ ، الكشاف ٤ / ٢٩٦ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٨٠ ، مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٥ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٤ ، مسائل الرازى وأجوبتها ٥٥٦ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣٢٦ ، ٧٣٢٧ ، نظم الدرر ٨ / ٥٦٨ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ٢١٠ ، حاشية الشهاب ٨ / ٤٠٨ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٦٠١ ، فتح القدير ٥ / ٥١١ ، روح المعانى ١٥ / ٤٩٧ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٢ .

الذى ترمى إليه ، وهو جعل أبى لهب قطب مـــدار الـــسورة ومرمـــى الزجـــر والوعيد.

التعبير بـــ (وتب) وما له من دلالات

أسلفت أن عطف هذه الجملة على ما قبلها أفرز تأويلات عديدة ، هـــى فى نظرنا كشف عن ثراء النص القرآنى الشريف الذى يتحمل من التـــأويلات مـــا يناسب اتساع المقام الذى يلائمه ، وقد ذكروا وجوها فى تأويل عطف (وتب) على ما قبلها يمكن إيجازها فيما يلى : ــ

١ـــ أن الأول جرى مجرى الدعاء ، والثانى : جزاء ، أى : وقد تب ، وعليـــه فالجملة الثانية حالية ، واستدلوا لذلك بقراءة ابن مسعود (وقد تب) .

٢ـــ أن الأول إخبار عن هلاك عمله ، حيث لم يفده ولم ينفعه ، لأن الأعمـــال تزاول بالأيدى غالبا ، والثانى : إخبار عن هلاك نفسه ، ويكون فى هذا شبه من مجئ العام بعد الخاص .

٣ـــ أن كليهما دعاء عليه بالهلاك ، وفى ذلك إغلاظ له فى الشتم والتقريع لمـــا فى الإعادة من التأكيد .

٤ـــ أن كليهما إخبار بهلاك ذينك الأمرين ، والتعـــبير بالماضـــى فى الموضـــعين لتحقق الوقوع .

٥ـــ أن الأولى تعنى هلاك نفسه ، والثانية تعنى هلاك ولده عتبة ([1]) ولا أرى أن النص يشير إليه .

([1]) الكشاف ٤/٢٩٦ ، البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى ٣٠٨ ، بحر العلوم ٣/ ٥٢٣ ، مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٣٢٦ ، نظم الدرر ٨/٥٦٩ ، أنوار التنزيل للبيضاوى ٢/٥٨١ ، حاشية الشهاب ٨/٤٠٨ ، إرشاد العقل السليم ٩/٢١٠

والذى أبصره أن كل هذه التأويلات يحتملها النص ، وأنها فى جملتها تتجه إلى ما تتظاهر عليه تراكيب السورة من زجر أبى لهب على وعيده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفى هذا التركيب البديع — الذى هو من خصائص السورة الكريمة ، ومن معالمها — زيادة تغليظ فى الوعيد لأبى لهب ، وفى هذا مطابقة للمقام ، الذى يفسره لنا سبب النزول ، فإن كان قد قال (تبا لك) للرسول — صلى الله عليه وسلم — مرة واحدة ، فقد قالها له الذكر الحكيم مرتين وبصيغة الماضى ؛ إلماعا إلى ثقة الموعد بوعيده ، وفيه من الزجر لأبى لهب وأمثاله ما فيه ، كما أن فيه من التأييد للرسول — صلى الله عليه وسلم — وأتباعه ما فيه .

قوله تعالى (ما أغنى عنه ماله وماكسب) ودلالاته

لهذه الجملة موقع عجيب إذ جاءت عقب الجملة شرحا وتفصيلا لما أجملته الجملة الأولى الجامعة ، وهى تصور أبا لهب عريانا فى العراء لا يجد من ماله ، ولا من كسبه ما يدفع به عنه نفسه لظى العقاب الدنيوى ، و لا العقاب الأخروى ، وفيها أيضا تحسير له ، ومن أشد الحسرات لذعا أن ترى ما كنت تعده ردءا لك فى الشدائد لا يساوى شيئا ، ولا يدفع عنك غائلة ، وهذا كله مطابق للمقام لما كان يحتمى به أبو لهب من التفاخر بالجاه والمال والولد .

ومن خصائص هذه السورة أن هذا التركيب هو أجمع ما فى القرآن حديثا عن عدم غناء المال والكسب أصحابه من عذاب الله شيئا ، فلم يجمع القرآن الكريم عدم غناء المال والكسب فى آية أبدا ، خذ من ذلك مثلا قوله تعالى : — " فما

تفسير ابن كثير ٥٦٤/٤ ، فتح القدير ٥١١/٥ ، الفتوحات الإلهية ٦٠١/٤ ، روح المعانى للآلوسى ٤٩٧/١٥ ، تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ١٣٢ ، التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٣ .

أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " (الحجر / ٨٤) وقوله : " قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " (الزمر / ٥٠) وقوله : " فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " (فصلت / ١٧) وقوله : " ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا " (الجاثية / ١٠) وكلها ــ كما تبصر ــ حديث عن عدم غناء الكسب ، وقد جاء الحديث عن عدم غناء المال فى آيات أخرى من ذلك قوله تعالى ــ " لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا " (المجادلة / ١٧) وقوله : " ما أغنى عنى ماليه " (الحاقة / ٢٨) وقوله : " وما يغنى عنه ماله إذا تردى " (الليل / ١١) وقوله : " يحسب أن ماله أخلده " (الهمزة / ٣) و أنت أمام هذه الآيات تبصر أن ما فى سورة المسد أجمع ما فى القرآن حديثا عن هذا الأمر ، وربما كانت تلخيصا موجزا لكل هذه الآيات ، وقد رمى بها فى وجه أبى لهب جزاء ما رمى من التباب فى وجهه الكريم ــ صلى الله عليه وسلم.

ومما هو جدير بالذكر أن نورد ما يكشف عن التناسب بين المقام والمقتضى ، من ذلك ما رواه ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخى حقا ، فإنى أفتدى نفسى يوم القيامة بمالى وولدى ، فأنزل الله ــ تعالى ــ " ما أغنى عنه ماله وما كسب " ([1])

([1]) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٦٤ .

ويمكن أن نوجز قول الأئمة فى استنطاق النص فيما يلى : ــ

١ــ قالوا وجه مناسبة الآية لما قبلها أنه لما أوقع ــ سبحانه ــ الإخبار بهلاكه على هذا الوجه المؤكد لما كان لصاحب القصة وغيره من الكفار من التكذيب بلسان حاله وقاله ، لماله من المال والولد ، وما هو فيه من القوة بالعدد والعدد ، زاد الأمر تحققا إعلاما بأن الأحوال الدنيوية لا غناء لها ، فقال مخبرا أو مستفهما منكرا (ما أغنى . . . " [1]

٢ــ أنها وقعت من سابقتها موقع الاستئناف الابتدائى ، للانتقال من إنشاء الشتم والتوبيخ إلى الإعلام بأنه آيس من النجاة من هذا التباب ، ولا يغنيه ماله ولا كسبه [2]

٣ــ أن (ما) الأولى استفهامية للتوبيخ والإنكار ، والمعنى : أى شئ أغنى عنه ، أو أنها نافية ، والمعنى : لم يغن عنه حين حل به التباب ، وأن (ما) الثانية يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، ويجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية ، ويجوز أن تكون مصدرية [3]

٤ــ أن (ما كسب) تحتمل عندهم عدة معان منها : ــ أن ما كسب معناها : ما ولد ، أو أنه يراد بماله : جميع ماله ، وعطفه (ما كسب) من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به ، أو ما أغنى عنه ماورثه ، ولا ما كسبه بنفسه ، أو أن

---

[1] ينظر نظم الدرر ٨/ ٥٧١ .

[2] التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٣ .

[3] ينظر بحر العلوم ٥٢٣/٣ ، الكشاف ٢٦٩/٤ ، أنوار التنزيل ٥٨١/٢ ، تفسير ابن كثير ٥٦٤/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٣٢٨ ، ، مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٧ ، الشهاب على البيضاوى ٨/ ٤٠٩ ، ٧٥٨ ، فتح القدير ٥/ ٥١٢ ، روح المعانى ١٥/ ٤٩٨ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١٠الفتوحات الإلهية ٦٠١/٤ ، تفسير جزء عم ١٣٣، التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٤ .

المقصود بما كسب عمله الذى كان يأتيه فى معاداة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ طلبا للعلو والظهور ، و أن المقصود بما كسب الجاه .، أو أن المقصود بماله : رأس المال ، وبما كسب الأرباح .([1])

وهذه التأويلات كلها تتعانق ولا تتعاند ، وكلها تلائم المقام ، فقد كان لـــه من المال والجاه والولد ما يعينه على إيذاء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى لا يكون له جاه يستطيع أن يطاوله ، وهو الرسالة والنبـــوة ، فجـــاء الـــنص الشريف ليجرده من كل ذلك ، ويحسره به ، وذلك أنسب لزجره الذى تتظاهر عليه تراكيب السورة ، فوق أن كل ذلك جاء بالتعبير بالماضى تناسبا مع الآيـــة الأولى ، وليكون التحسير والوعيد آكد .

وقد طرح الفخر ــ رحمه الله ــ سؤالا هو : ما أغنى عنه ماله وماكـــسب فى ماذا ؟ وأجاب بقوله : قال بعضهم : فى عداوة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلم يغلب عليه ، وقال بعضهم : بل لم يغنيا عنه دفع النار ، ولذلك قـــال : (سيصلى) ([2]) والحق أن المراد أن ماله وكسبه لم يغنياه عن هذا ، ولا عن ذاك ، إذ كان ظنه بماله وكسبه يتعلق بالأمرين ، أما وقوعه فى الآخرة فقد دل عليـــه ما بعده ، وأما وقوعه فى الدنيا فقد دل عليه ما روى أبو رافع مـــولى

([1]) ينظر بحر العلوم ٥٢٣/٣ ، الكشاف ٢٩٦/٤ ، تفسير غريب القرآن القرآن لابن قتيبة ٥٤٢ ، مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٨ : ٧٥٩ ، أنوار التنزيل ٥٨١/٢ ، تفسير القرطبى ٧٣٢٨/١٠ ، تفسير ابن كثير ٥٦٤/٤ ، فتح القدير ٥/ ٥١٢ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١٠ ، حاشية الشهاب ٨/ ٤٠٩ ، الفتوحات الإلهية ٤/ ٦٠١ ، روح المعانى ١٥/ ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٤ .

([2]) مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٩ .

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : كنت غلاما للعباس بــن عبــد المطلب ، وكان الإسلام دخل بيتنا ، فأسلم العباس ، وأســلمت أم الفــضل ، وأسلمت أنا ، وكان العباس يهاب القوم ، ويكتم إسلامه ، وكان أبــو لهــب تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعث مكانه رجلا آخر ، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا فى أنفسنا قــوة ، وكنت رجلا ضعيفا ، وكنت أعمل القداح ألحيها فى حجرة زمــزم ، فكنــت جالسا هناك ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا مــن الخــبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه ، فجلس على طنب (هو حبــل يــشد بــه الخبــاء والسرادق) الحجرة وكان ظهرى إلى ظهره ، فبينا هو جالس ، إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، فقال أبو لهب : كيف الخبر يا ابن أخى ؟ فقال : لقينا القوم ، ومنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف أوردوا ، وايم الله ، مع ذلك تأملت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، ثم برك علىّ فضربنى ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامــت أم الفــضل إلى عمــود فضربته على رأسه وشجته ، وقالت : تستضعفه أن غاب ســيده ، والله نحــن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال ، فانصرف ذليلا ، فو الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعــدســة (هى بثرة تخرج فى البدن كالطــاعون وقلما يسلم صاحبها) فقتلته ، ولقد تركه ابناه ليلتين ، أو ثلاثا ، مــا يدفنانــه حتى أنتن فى بيته " ([1])

وقد ذكروا أن ذلك كان بعد وقعة بدر لسبع ليال ، فاجتنبه أهلــه مخافــة العدوى ، وكانت قريش تتقيها كالطاعون ، فبقى ثلاثا حتى أنتن ، فلما خــافوا

([1]) مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٥٩ ، ٧٦٠ .

العار استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه ، وفى رواية حفروا له حفـــرة ، ودفعوه بعود حتى وقع فيها فقذفوه بالحجارة حتى واروه ([1])

وكلها روايات دالة على خزيه فى الدنيا ، وعلى تحقق ما أنبأ به القرآن الكريم ، وهو من مطابقة الكلام مقتضى الحال ؛ لذا قال البقاعى : ـــ تعقيبا على ما سبق " وذلك من أول إعجاز هذه الآيات ، أن كان سبة فى العرب دون أن يغنى عنه شئ مما يظن أنه يغنى عنه " ([2])

عقابه الأخروى (سيصلى نارا ذات لهب)

الآية الكريمة تصور عقابه الأخروى ، وقد سبق أن أسلفنا أنه يمكـــن أن يـــراد بعدم غناء ماله وكسبه عنه شيئا حاله فى الدنيا وحاله فى الآخرة ؛ لذا ذكر ابـــن عاشور أن هذه الآية (سيصلى . . .) " بيان لجملة (ما أغنى عنه مالـــه ومـــا كسب) أى لايغنى عنه شئ من عذاب جهنم " ([3])

وحين نتأمل تراكيب الآية الكريمة نرى أنها جاءت مطابقة للمقام ، إذ تتظـــاهر تراكيبها على زجر أبى لهب وأول ما يلقانا فى ذلك التعبير بالسين ، وقد ذكروا أن السين للتحقيق ، وتأكيد الوعيد وتشديده ([4]) وإنما استنبطوا ذلك مما تفيده السين من عدم تراخى الزمن ، وقرب تحقق الوعيد والتهديد ، ومن ذلك أيـــضا أن الفعل جاء مبنيا للمعلوم زيادة فى إهانته ، وإمعانا فى إذلاله ؛ لـــذا لم يقـــل :

([1]) روح المعانى ١٥/ ٤٩٩ .

([2]) نظم الدرر ٨/ ٥٧٢ .

([3]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٤ .

([4]) الكشاف ٤/ ٢٩٧ ، إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١١ ، روح المعانى ١٥/ ٤٩٩ ، التحرير والتنوير ٣٠/ ٦٠٤ .

سيدخل نارا ، وفى تنكير (نارا) تعظيم لها ([1]) فيدس فيها ، وتنعطف عليه وتحيط به ، وكأنه سيدخل النار باختياره ، ويصير إليها بمحض إرادته ، وفى انتفاء لفظ (يصلى) مزيد تخويف لأن " أصل الصلى لإيقاد النار " ([2])

ومن خصوصيات هذه السورة أن النار وصفت هذا الوصف (ذات لهب) ، ولا كهذا الوصف فى الذكر الحكيم للنار ، وإنما وصفت بأوصاف أخرى من ذلك قوله تعالى : " يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة " (التحريم / ٦) وقوله : " النار ذات الوقود " (البروج / ٥) وقوله :" الذى يصلى النار الكبرى " (الأعلى / ١٢) وقوله : " تصلى نارا حامية " (الغاشية / ٤) وقوله : " عليهم نار مؤصدة " (البلد / ٢٠) وقوله : " فأنذرتكم نارا تلظى " (الليل / ١٤) وقوله : " نار حامية " (القارعة / ١١) وقوله : " نار الله الموقدة " (الهمزة / ٦) .

ووصفها جاء مطابقا للمقام لأنه " لما كان المقصود شدة نكايته بأشد ما يكون من الحرارة ، كما أحرق أكباد الأولياء ، وكانت النار قد تكون جمرا ، ثم تنطفئ عن قرب ، قال : (ذات لهب) أى لا تسكن ولا تخمد أبدا ، لأن ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها بـ (ذات لهب) "([3])

وإضافة (ذات) إلى لهب تأتى فى إطار المقصد الذى يتظاهر على زجر أبى لهب ووعيده ؛ إذ فيها مناسبة لكنيته ، وكأنها جاءت تحقيقا لمعناها ، فصار أبا لهب

([1]) إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١١ ، روح المعانى ١٥/ ٤٩٩ .

([2]) المفردات (ص ل ى) ٢٨٥

([3]) نظم الدرر ٨/ ٥٧٢ .

أى ملازما للنار فى التعبير بها موافقة لحاله وتحقيقا لمآله ، وفيها أيـــضا " زيـــادة تقرير المناسبة بين اسمه ، وبين كفره ، إذ هو أبو لهب ، والنار ذات لهب " ([1])
وقد ذكروا أن ههنا جناسا بين (لهب ولهب) قالوا : والقول بأنه ليس بتجنيس لفظى ؛ لأنه ليس فى الفاصلة وهم ، فإنهم لم يشترطوه فيه " ([2]) والذى أبـــصره أن فى هذه الخصوصية ربطا للمعانى التى يكثر ورودها فى الذكر الحكيم بسياقها ، وقد رأينا فيما مضى أوصاف النار فى القرآن الكريم ، وكل وصف لها جـــاء ملائما لسياقه ، وهذه طريقة الذكر الحكيم فى سوره ، فلكل سورة طريقـــة فى التعبير عن مقصدها ومعناها .
وجملة القول أن الآية الكريمة تظاهرت تراكيبها على تشديد الزجـــر ، وتأكيـــد الوعيد لأبى لهب تناسبا مع إصراره على إيذائه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بكل ما أوتى من مال وولد وجاه ، وفى قرابته للرسول ـــ صلى الله عليه وســـلم ـــ منع للكل من الدفاع عنه ، وتأكيد للغريب على عدم صدق دعواه ، إذ يقول : لو كان هذا الرجل صادقا لكان أقرب الناس إليه أولى بتصديقه ، فهو بـــذلك ضال مضل ، وقد جاءت تراكيب السورة مناسبة لحاله .

وعيد امرأته ودلالته

(وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد)
قوله : (وامرأته) عطف على الضمير المستكن فى قوله (سيصلى) وفى ذلـــك وضع لهما فى مرمى واحد من مرامى الوعيد ، وقد دلت الروايات علـــى أنهـــا كانت من أشد الناس كرها له ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وإيـــذاء لـــه ، وفى

([1]) التحرير ٣٠ / ٦٠٥ .
([2]) حاشية الشهاب على البيضاوى ٨ / ٤٠٨ .

العطف ملاءمة للمقام ، فكما كانت تتبع زوجها فى إيذائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ تتبعه كذلك فى العقوبة ، وقد ذكروا أنها كانت تحمل العضاه (كل شجر له شوك صغر أو كبر) والشوك فتضعه فى الليل فى طريق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه .

وقد استشف البقاعى ــ رحمه الله ــ مناسبة جيدة لذكر حال امرأته ومآلها عقب ذكر حاله ومآله ، حيث قال : " ولما أخبر ــ سبحانه وتعالى ــ عنه بكمال التباب الذى هو نهاية الخسار ، وكان أشق ما على الإنسان هتك ما يصونه من حريمه ، حتى أنه يبذل نفسه دون ذلك ، لا سيما العرب ، فإنه لا يدانيهم فى ذلك أحد ، زاده تحقيرا بذكر من يصونها معبرا عنها بما صدرها بأزرأ صورة وأشنعها " ([1])

ولم تذكر كنيتها كما ذكرت كنية زوجها تلاؤما مع المقام ، فقد ذكر القرآن الكريم كنية أبى لهب لما كان ذلك مناسبا للمقام ، ولم يذكرها بكنيتها لأن كنيتها غير ملائمة للمقام حيث كانت تسمى أم جميل ، فالمقام هو الذى قضى بذلك ، قال البقاعى : " وعدل عن ذكرها بكنيتها لأن صفتها القباحة ، وهى ضد كنيتها " ([2])

وقد نقل الآلوسى عن السهيلى فى الروض الأنف قوله :" ولتحقيرها ، قيل : (امرأته) ولم يقل زوجه " وعلق الآلوسى على ذلك بقوله : " وهو بديع جدا إلا أنه يعكر على آخره قوله: ــ تعالى ــ (وامرأته قائمة) (هود / ٧١) ولعله

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥٧٣ .

([2]) نظم الدرر ٨ / ٥٧٣ .

استعان ههنا على ما قال بالمقام " ([1]) وهو كلام جيد ، وللسياق أثر بـــالغ فى إضافة إيحاءات خاصة على الألفاظ .

هذا وقد ذكر صفة قبيحة لها (حمالة الحطب) وقد ذكروا أن نصب حمالة على الشتم والذم ([2]) وقيل غير ذلك ، ولكن الأول أولى ، وذكـــروا أن معنـــاه : حطب جهنم ([3]) فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداة الرسول ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ أو أن ذلك على الحقيقة ، فإنها كانت تحمل حزمة الشوك والحـــسك وتنثرها بالليل فى طريق رسول الله ـــ صلى الله عليه وســـلم ـــ و لاشـــتهارها بذلك جاءت الصفة للذم ([4]) لا للتخصيص ، وقيل :كانت تعير النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بالفقر ، وكانت تحتطب فعيرت بذلك ، وقيل الكلام علـــى المجاز عن مشيها بالنميمة على طريق الاستعارة التمثيلية ([5]) ، وقيل : إنها مـــع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعـــيرت بالبخـــل ([6])، ويمكن أن يكون ذلك كله مرادا ، وتكون هيئة الكلام ملائمة لهـــذا المقـــام فى الحال والمآل حسا ومعنى ، وما أجمل قول ابن عاشور كاشفا عن ســـر التعـــبير بالوصف بدل الكنية حيث يقول : " فلما حصل لأبى لهب وعيد مقتـــبس مـــن كنيته جعل لامرأته وعيدا مقتبسا لفظه من فعلها ، وهو حمل الحطب فى الدنيا ،

([1]) روح المعانى ١٥ / ٥٠١ .

([2]) إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١١ .

([3]) بحر العلوم ٣/ ٥٢٣ ، الفتوحات الإلهية ٤/ ٦٠٢ ، روح المعانى ١٥/ ٥٠٠ .

([4]) مفاتيح الغيب ١٦/ ٧٦١ .

([5]) ينظر جامع البيان للطبرى ٣٠/ ٢١٩ ، ٢٢٠ ، تفسير غريب القرآن ٥٤٢ ، والشهاب على البيضاوى ٨/ ٤١٠ .

([6]) إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١١ .

فأنذرت بأنها تحمل الحطب فى جهنم ليوقد به على زوجها ، وذلك خــزى لهــا ولزوجها إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه ، وجعلها سببا لعــذاب أعز الناس عليها " ([1]) كما أن فى ذكرها بهذه الصفة إشعارا بسبب العــذاب ، وحتى يكون الجزاء من جنس العمل ، وشئ آخر أن هذا الوصف مــن معــالم السورة ، وهو يتواصل مع المعالم الأخرى (أبو لهب ــ ذات لهب) والحطــب هو مادة اللهب ، وهذا تناسب عجيب فى بناء السورة الكريمة .

ثم جاءت الجملة الحالية (فى جيدها حبل من مسد) والجيد : العنق ، والمسد : المفتول ، تقول : مسدت الحبل أى فتلته ، والجيد والمسد من الألفاظ الخاصــة بالسورة الكريمة ، والتى تلائم الحطب ، والحطب يلائم اللهب ، والكــل مــن أجل أبى لهب ، جاءت الجملة الحالية لتصور امرأته فى صورة ما يفعل الحطــابون " تخسيسا لحالها ، وتحقيرا لها ، وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من المــواهن لتمتعض من ذلك ، ويمتعض بعلها ، وهما فى بيت العز والــشرف وفى منــصب الثروة والجدة "([2])

هذا ومن عجائب الذكر الحكيم أن المعنى يتعانق لا يتعاند ، وأن التركيب يمكن أن يكشف عن مآلها فى الآخرة ، لأن الجزاء من جنس العمل ، وفى تقديم الخــبر من قوله :(فى جيدها) " اهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التى عوضت فيهــا بحبل فى جيدها عن العقد الذى كانت تحلى به جيدها فى الدنيا " ([3])

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٥ .

([2]) الكشاف ٤/ ٢٩٧ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٨١ .

([3]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٦٠٧ .

هذا وقد جرت عادة القرآن الكريم " أن يذكر العنق مع الغل ونحوه ، مما فيه امتهان ، كما قال : ـ تعالى (فى أعناقهم أغلالا) والجيد مع الحلى كقول الشاعر : ـ وأحسن من جيد المليحة حليها

ولو قال : عنقها كان غثا من الكلام ، قال فى الروض الأنف : لأنه تهكم نحو (فبشرهم بعذاب أليم) (آل عمران / ٢١ ، التوبة / ٣٤ ، الانشقاق ٢٤) أى لا جيد لها فيحلى ، ولو كان لكانت حليته هذه " أى أن فى التعبير بالجيد فى هذا المقام زيادة تحقير ، وامتهان لها ، وفى ذلك ما فيه من إيذاء لزوجها ، هذا والتراكيب كلها تعانقت فى ملاءمة المقام ، وزجر أبى لهب تعانقا بديعا ، وختمت بعقاب امرأته " وقد رجع آخرها على أولها ، فإن من كانت امرأته مصورة بصورة حطابة على ظهرها حزمة حطب معلق حبلها فى جيدها ، فهو فى غاية الحقارة ، والتباب والخساسة ، والخسارة " (1)

خلو السورة من الأسماء الحسنى وملاءمته المقام

كما أبصرنا خلت السورة الكريمة من الأسماء الحسنى ، بل ومن أى ضمير يعود إلى أى من الأسماء الحسنى ، وفى ذلك مطابقة للمقام ، وكأن السورة الكريمة إنذار لأبى لهب بالحرب ؛ لذا جاءت على نهج العرب وغيرهم فى الحروب ، وفى تمتين الوعيد والتهديد ، وفى الإنذار بعدم المهادنة مهما كان من أمر .

خذ من ذلك مثلا ما رواه ابن الأثير فى يوم مرج حليمة ، وقتل المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، قال : " لما قتل المنذر بن ماء السماء على ما تقدم ملك بعده ابنه المنذر ، وتلقب الأسود ، فلما استقر وثبت قدمه جمع عساكره ، وسار إلى الحارث الأعرج مطالبا بثار أبيه عنده ، وبعث إليه : إننى قد أعددت لك

(1) نظم الدرر ٨/ ٥٧٤ .

الكهول (الكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين) على الفحـــول (الفحـــل : الذكر القوى من كل حيوان) فأجابه الحارث : قد أعددت لك المرد (جمع أمـــرد وهو من طرّ شاربه وبلّغ خروج لحيته ، ولم تبد) على الجرد (جمع أجرد وهو الفرس السباق) " ([1])

وخذ منه أيضا ما حكى من أن عبد الملك بن مروان حين أحـــدث كتابـــة ســـورة الإخلاص ، وذكر النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ على الدنانير والدراهم ، كتب إليه ملك الروم : إنكم قد أحدثتم فى طواميركم (صحفكم) شيئا من ذكر نبيكم ، فاتركوه ، وإلا أتاكم فى دنانيرنا ذكر ما تكرهون " ([2])

فالمقام مقام متاركة ومكارهة ؛ لذا لم يذكر فيه اسم من أسماء الله ، ولا صـــفة مـــن صفاته ، وفى ذلك زيادة تهديد ووعيد وزجر لأبى لهب ، وقد صدق الواقع من قبل ذلك هذا التهديد وذلك الوعيد ، هذا ما ظهر لى فى عدم اشتمال السورة الكريمـــة على أى اسم من أسماء الله الحسنى ، كما أن هذا يتناسب مع مقصد السورة الكريمة الذى يتكرر عبر الزمان كله ، ومدارها على البت والقطع والخسران ؛ لذا لم تذكر صفة من صفات الجلال ، وهو أدل شئ على شدة البت والقطع .

تراكيب السورة تلائم الزمان كله

لا يمكننا على الإطلاق أن نعد زمن النزول مقاما للسورة الكريمة وحـــده ، و إنمـــا يمكننا أن نعده المقام المباشر حينها ، وهو بهذا الفهم نموذج لمقامات تتكرر عبر الزمان كله ، ويبقى أبو لهب رمزا لمن انقطعت عنه الشفاعة على الرغم من صلته الوثيقـــة بأحب خلق الله إلى الله ـــ عز وعلا ـــ و إن كان أغنى القوم ، وأكثـــرهم ولـــدا ، وأقعدهم فى الحسب .

([1]) الكامل فى التاريخ لابن الأثير تحقيق عبد الله القاضى ط دار الكتب العلمية ١٩٩٥ .

([2]) صبح الأعشى للقلقشندى ٦ / ٢٥٧ تحقيق د/ على يوسف طويل ط دار الكتب العلمية ١٩٨٧ م .

هذا ولم يغب هذا الفهم عن علمائنا ، يقول ابن الزبير فى سورة المسد : " هذه السورة و إن نزلت على سبب خاص ، وفى قصة معلومة فهى مع ما تقدمها واتصل بها فى قوة أن لو قيل : قد انقضى يا محمد عمرك . . . وحان أجلك ، و أمارة ذلك دخول الناس فى دين الله أفواجا . . . والويل لمن عاند وعدل عن متابعتك ، و إن كان أقرب الناس إليك . . . وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان ، و أن القربات غير نافعة ولا مجزية شيئا إلا مع الإيمان " ([1])

وقال الشيخ عبد المتعال الصعيدى : " قال الله : ـــ تعالى (تبت يدا أبى لهب) فأنذر أبا لهب بهلاك ماله ونفسه ، والمراد منه كل كافر ألهاه ماله عن الاستجابة للنبى ـــ صلى الله عليه وسلم " ([2])

و لأجل هذا استنبط البقاعى ـــ رحمه الله ـــ مقصد السورة الكريمة من تراكيبها بما يلائم تكرر هذا النموذج عبر الزمان ، وصاغه صياغة محكمة ترشد إلى ما نريد التأكيد عليه حيث يقول : " ومقصودها : البت والقطع الحتم بخسران الكافر ، ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين اللازم عنه أن شارع الدين له من العظمة ما يقصر عنه الوصف ، فهو يفعل ما يشاء ؛ لأنه لا كقوله أصلا ؛ حثا على التوحيد من سائر العبيد "([3])

هذا والعلماء ورثة الأنبياء وللصالحين عند الله من المنزلة ما هو معروف ، ويكون للكل أقرباء ، وقد يصدر أشد الإيذاء للعلماء والصالحين من بعض أقربائهم ، وقد يكون بعض أقربائهم أكثر الناس فسقا ، فكل من طابق أبا لهب سيرة وعملا ، انطبق عليه ما فى السورة من خسران فى الدنيا ، وعذاب فى العقبى ، وكان من الله مؤذنا بحرب شديدة ، ولا يغيب عنا قوله : ـــ تعالى " إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله

([1]) البرهان فى تناسب سور القرآن لابن الزبير ٢٤٦ .

([2]) النظم الفنى ٣٧١ .

([3]) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعى ٣/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نـــصرهم لقدير " (الحج / ٣٨ ، ٣٩)

و إلى استيعاب تراكيب السورة الزمان كله ، وتتابع الوقائع المتشابهة ـــ مهما تكاثرت ـــ أشار الإمام محمد عبده بقوله : ـــ بعد الحديث عن أبى لهب " فكأنه بذلك صار مثلا للصاد عن الحق ، المنفر للناس من فهم ما أنزل الله على نبيه ، المحول لهم عن الإصغاء إلى الكلم الطيب ، وتناول ما ضمنته من الهدى ، والدلالة على نهج النجاة ، فما تضمنه الدعاء من النكاية ، وما جاء به الوعيد من سوء العاقبة يلاقى كل محول للناس عن تدبر كتاب الله ، وفهم ما جاء فيه من عبر و أحكام . . . وكل امرأة تنم بين الناس لتفرق كلمتهم ، وتذهب بهم مذاهب السوء فهى ممثلة فى هذا المثال ، نازل بها ذلك النكال " ([1])

هذا وقد جاءت تراكيب السورة حمالة وجوه لتناسب كل مستجدات الزمان ، وتتسع لكل الوقائع ، من ذلك مثلا كثرة تأويل قوله : ـــ تعالى (ما أغنى عنـــه ماله وما كسب) فقد اتسعت دلالة هذا التركيب لتشمل كل ما يرثه الإنـــسان من مال ، وما يكسبه من مال ، وماله من الولد ، وماله من الجاه إلى آخر ذلـــك مما يستوعب كل مستجدات الزمان ، ومنه أيضا قوله : ـــ تعالى (حمالة الحطب) وما يحتمله اللفظ من الحقيقة والمجاز ليشمل كل أنواع الأذى لمن ترسم أثـــره ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حسا ومعنى ، وكل ما يستحدث فى العصور ممـــا يؤدى إلى إشعال النار المعنوية والنار الحسية ، وهكذا كل تراكيب السورة .

([1]) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ١٣٣ .

الفصل الثانى
سورة العصر

موقع السورة فى النزول ودلالته

السورة الكريمة هى السورة الثالثة عشر فى النزول ، وقد نزلـت بعـد سورة الشرح ، وسورة الشرح أيضا تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لـذا ترى فيها تراكيب تعين على تحمل الإيذاء لا نظير لها فى الذكر الحكيم (فإن مع اليسر يسرا . إن مع العسر يسرا) (الشرح / ٥ ، ٦) ناهيك عـن مفتـتح السورة ، وما فيه من تثبيت فؤاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتذكيره بامتنـان الله عليه (ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك) (الشرح / ١ : ٤) أى كما لم نتركـك قـبلا ، فلـن نتركك بعد ذلك ، وكما كنا معك تأييدا ونصرا ، سنظل معك ، ومـع مـن اتبعك تأييدا ونصرا ، وقد وقعت سورة الشرح من بعد سورة الضحى ترتيبـا ونزولا ، وفى سورة الضحى أكبر التسلية له ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ و أعظم البشارة بأن الله معه أبدا (ما ودعك ربك وما قلى) (الضحى / ٣)
وقد جاءت سورة الشرح امتدادا لروح التراكيب فى سورة الضحى تأمـل (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) (الـضحى / ٦: ٨) ثم افتتح السورة بقوله (ألم نشرح لك صدرك) و كأن الـسورتين قامتـا على تأكيد عدم ترك الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد جـاءت سـورة

العصر فى هذا السياق ، و كأن سورتى الضحى والشرح كانتا تأييدا وتثبيتا لــه ــ صلى الله عليه وسلم ــ و تعويلا على ما سبق من امتنان الله عليه جــاءت سورة العصر مفتتحة بالعصر الذى من أبر معانيه بالسياق هنا الــدهر ؛ تأييــدا للقلة المؤمنة بأن الله معهم ، وأنهم الرابحون ؛ تعويلا على ما سبق أيــضا مــن حوادث التاريخ ، آمل أن تكون قد أبصرت معى شيئا من هذا الذى أريد قوله فى محاولة إبصار موقع السورة فى النزول .

موقع السورة فى الكتاب العزيز ودلالته

السورة الكريمة فى المصحف الشريف هى السورة الثالثة بعد المائة ، وقد وقعت بعد سورة التكاثر ، وقبل سورة الهمزة ، وسورة العصر تشبه أن تكون اســتثناء من جملة (ألهاكم التكاثر) (التكاثر / ١) وسورة الهمــزة تــشبه أن تكــون نموذجا لقصور إدراك هذا الإنسان الخاسر الذى هو الأعم والأكثر .

قال ابن الزبير ــ رحمه الله ــ كاشفا عن المناسبة " لما قال : ــ تعــالى ــ (ألهاكم التكاثر) وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان ، وحصر إدراكه فى العاجل دون الآجل الذى فيه فوزه وفلاحه ، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع (إنه كان ظلوما جهولا) (الأحزاب / ٧٢) أخــبر ــ ســبحانه ــ أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان ، فقال : ــ تعالى ــ (والعصر إن الإنــسان لفى خسر) (العصر / ١،٢) فالقصور شأنه ، والظلم طبعه ، والجهل جبلتــه ، فيحق أن يلهيه التكاثر إلا أن يدخل عليه روح الإيمان (إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالصبر) فهؤلاء الذين لا يلهيهم التكاثر (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) (النور / ٣٧) " ([1])

وقال فى سورة الهمزة " لما قال : ــ سبحانه ــ (إن الإنسان لفى خسر) أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره ، واغتراره ، وظنه الكمال بنفسه حتى يعيب غيره " ([2]) ووجه آخر ذكره النيسابورى فى مناسبة العصر مع التكاثر " لما بين فى السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم أراد أن يبين فى هذه السورة ما يجب الاشتغال به من الإيمان و الأعمال الصالحات " ([3]) وقال الشيخ عبد المتعال الصعيدى : " يقصد من هذه السورة الترغيب فى العمل الصالح ، وقد أتى هذا فى مقابلة ما كان منهم من التفاخر بالأموال و الأولاد ؛ ولهذا ذكرت سورة العصر بعد سورة التكاثر " ([4]) وواضح أنه قد استكشف مقصد السورة من موقعها فى الكتاب العزيز .

وقد ذكر البقاعى ــ رحمه الله ــ أن السورة تحدثت عن خلاصة النوع الإنسانى " وهم الحزب الناجى يوم السؤال عن زكاء الأعمال بعد الإشارة إلى أخذ أضدادهم " ([5]) أى أن التناسب بين سورتى العصر والتكاثر تناسب تضاد ومقابلة ، وهو نوع من أنواع التناسب أيضا ، وترتيب المصحف يتلاقى مع حال النزول أيضا ، وإنما أعان على إيذاء الضعفاء ما أوتيه الكفار من المال والولد ، وقد كانوا مكاثرين مفاخرين بذلك ، لا ينفكون عن همز الضعفاء

([1]) البرهان ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

([2]) السابق ٢٤٠ .

([3]) غرائب القرآن ٣٠ / ١٥٨ .

([4]) النظم الفنى ٣٦٣ .

([5]) نظم الدرر ٨ / ٥٢١ .

وغيرهم ؛ اتكاء على ما جمعوه من مال ، وظنهم أن ذلك من وسائل خلـــودهم في الدنيا ، فقد تلاقى الترتيبان ، ولفقه هذين الترتيبين شـــأن عظـــيم في فقـــه تراكيب الذكر الحكيم .

حال النزول

نزلت السورة الكريمة فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبـــشة ، أي حـــين كانت الدعوة في مهدها ، وقد اشتد تعذيب المؤمنين في هذه الفترة ، وحـــسبك من معرفة عظم ما نالوه آنئذ من تعذيب أن أذن لهم بعـــد ذلـــك للـــهجرة إلى الحبشة ، وقد كانت ابنته ــ صلى الله عليه وسلم ــ السيدة رقية ــ رضي الله عنها ــ زوجة عثمان ــ رضي الله عنه ــ من المهاجرين إلى الحبشة في الهجـــرة الأولى ، وقد كانت الهجرة في العام التاسع تقريبا قبل الهجرة ، فقـــد نزلـــت السورة الكريمة في فترة عصيبة من حياة المؤمنين .

وقد دارت معاني السورة الكريمة على أن الناجين قليل بأبلغ تعبير و أوجزه ، و في ذلك تأييد للقلة المؤمنة من حوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبـــشارة لهـــم باستيفائهم عظيم الربح ، حتى تنهض هذه البشارة ردءا لهم في مقابل اشـــتداد تعذيبهم ، فيكون ذلك تثبيتا لهم ، وتسلية لقلوبهم ، وقد دلت تراكيب السورة على وجوب تحملهم الأذى مهما اشتد ، و الإصرار على الحق ، وتسلية بعضهم بعضا بالتصبر بالبقاء على الحق (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وربما كـــان افتتاح السورة بالقسم بالعصر أكبر الأدلة ــ باستقراء التاريخ ــ علـــى قلـــة الناجين ، واشتداد تعذيبهم لبقائهم على الحق في اتباع أنبيائهم ؛ لـــذا قـــالوا : العصر : معناه الدهر ، وقد دلت سير النبيين على انتصارهم في النهاية مع قلـــة متبعيهم على أعدائهم .

و يكشف سبب النزول عن حال النزول ، فيما روى ابن عباس ــ رضــى الله عنهما ــ أنه قال : (يقصد فى قوله تعالى : والعصر) يعنى : صــلاة العــصر ، وذلك أن أبا بكر لما أسلم ، قالوا : خسرت يا أبا بكر حين تركت دين أبيك . فقال أبو بكر : ليس الخسارة فى قبول الحق ، إنما الخسارة فى عبادة الأوثان التى لا تسمع و لا تبصر ، ولا تغنى عنكم ، فنزل جبريل ــ عليه السلام ــ بهــذه الآية (والعصر) " (1)

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : فى قوله : ــ تعالى (إن الإنسان لفــى خسر) يريد جماعة من المشركين ، الوليد بن المغيرة ، والعــاص بــن وائــل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والأسود بن يغــوث " (2) ، والملحوظ أن ما ذكر يجعل اللام للعهد ، أى : أن الإنسان : هم صناديد الكفار ، وأقطاب إيذاء القلة المؤمنة ، وقد قال الكفار لأبى بكر خــسرت . فــرد الله عليهم بأنهم الخاسرون .

التصور الجملى للسورة الكريمة

سورة العصر من أقصر سور الذكر الحكيم ، وهى عبارة عن جملة واحدة مركبة من مقسم به ومقسم عليه ، وهى أجمع ما فى القرآن الكريم ، وأوجزه ، وتتجــه بحديثها عموما إلى تصنيف البشر جميعا صنفين أكثرهم الخاســرون ، وأقلــهم المؤمنون ، وقد حدد لكل صنف مآله .

---

(1) بحر العلوم ٣ / ٥٠٨ .

(2) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٢٤ ، تفسير القرطبى ١٠ / ٧٢٦٩ ، فتح القدير ٥ / ٤٩١ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٣٠ / ١٥٩ .

تراكيب السورة فى ضوء حال النزول

الافتتاح بالقسم ـــ تأويلاته ـــ لطائفه .

افتتحت السورة الكريمة بالقسم (والعصر) والافتتاح بالقسم غالبا ما يكـــون للتوكيد ـــ كما قال سيبويه " اعلم أن القسم توكيد لكلامك " ([1]) وذكروا أن الله ـــ سبحانه ـــ إنما ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكـــم يفصل باثنتين ، إما بالشهادة ، و إما بالقسم ، فذكر ـــ تعالى ـــ النوعين حتى لا يبقى لهم حجة " ([2]) ، وقد نزل القرآن بلغة العرب " و إثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب " ([3]) ، وقد أثبتنا فى دراسة أخرى أن القسم من أقوى معاقد الكلام ، وأن إلقاءه فى صدر السورة يدل على جريان المعـــنى فيها ، و أن للقسم بالفجر غير ما للقسم بالضحى من المعـــانى والإيحـــاءات ، والتناسب بين ما أقسم به ـــ سبحانه ـــ وبين معانى السورة التى ورد فيها ([4])

هذا ، وقد كثرت تأويلات الأئمة للمراد بالعصر ، فقد ذكروا أن المراد بالعصر : الدهر ، أو الزمان الذى خلق فيه أصله (آدم) وهو عصر يوم الجمعـــة ، أو الصلاة الوسطى ، أو وقت الصلاة الوسطى (صلاة العصر) ، أو هـــو زمـــن الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أو هو وقت الأصيل ؛ لأنه أفضله بما يحويه

([1]) الكتاب ٣ / ١٠٤ .

([2]) البرهان للزركشى ٣ / ٤١ ، الإتقان ٢ / ١٦٩ وما بعدها .

([3]) الفتوحات الإلهية ٣ / ٥٢٨ .

([4]) ينظر حركة المعنى فى سورة الفجر ـــ دراسة بلاغية للمؤلف من ٣٤ : ٥٤ ط دار الاتحاد التعاونى ١٩٩٨م .

من الفراغ من الأشغال ، واستقبال الراحة ، أو هو العشى ، وذهب بعضهم إلى أن فى الكلام حذفا ، والأصل ورب العصر ، أو أنه الليلة "([1])

والحق الأزهر أن القسم جاء هنا على ما تعرفه العرب ، وما تدل عليـــه معـــانى السورة الكريمة ، وهو الدهر والزمان ، وهو ما عرفتـــه العـــرب فى كلامهـــا ، والدهر فيه من العبر والنظر أكبر شاهد ، وأعظم دليل على صدق ما يقول ربنا ـــ سبحانه ـــ ولذلك استحسن ابن جرير أن يكون معناه الدهر ، حيث قال : ـــ بعدما أورد معانى العصر " والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن ربنـــا أقسم بالعصر ، والعصر اسم للدهر ، وهو العشى والليل والنهار ، ولم يخـــصص مما شمله الاسم معنى دون معنى ، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم بـــه ـــ جل ثناؤه " ([2]) ويبدو أن العلامة ابن عاشور عوّل على مراد السورة حـــين قال : " وللعصر معان يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة واحدة على صفة من صفات الأفعال الربانية ، يتعين إما بإضافة إلى ما يقدر أو بالقرينة ، أو بالعهد ، و أيا ما كان المراد منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يـــذكر قدرة الله ـــ تعالى ـــ فى خلق العالم فى أحواله " ([3])

([1]) ينظر جامع البيان للطبرى ٣٠ / ١٨٧ ، الكشاف ٤/ ٢٨٢ ، بحر العلوم ٣ / ٥٠٨ ، مفاتيح الغيب ٦ / ٦٢٣ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠ / ٧٢٧٠ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٧ ، فتح القدير ٥ / ٤٩١ ، نظم الدرر ٨ / ٥٢٢ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٤ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٤٨ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٣٩٥ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٠ / ١٥٨ ، ١٥٩ الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٨٢ ، وتفسير جزء عم ١١٥ ، روح المعانى للآلوسى ١٥ / ٤٥٨ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٢٨ .

([2]) جامع البيان للطبرى ٣٠ / ١٨٧ .

([3]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٢٨ .

والذى أبصره أن الخطاب فى وقت النزول لم يكن للامتنان ، ولا بصلاة العصر ، وإنما المقسم به جاء إثباتا لخسارة من ألهاهم التكاثر ، وأن من قدر على تصريف الليل والنهار ، و أنزل بمن عصاه قبلا ألوان العذاب قادر على أن يجعلـــهم فى خسار ، و أن قدرته على ما مضى وغيره دليل على صدقه فيما أخبر به ، و أن المطلوب منهم مقايسة حالهم مع رسوله ــ صلى الله عليه وســـلم ــ بـــأحوال الغابرين مع أنبيائهم ، والتأويل على هذا المعنى أولى من غيره ــ فيما أبـــصر ــ لأن المقسم عليه أمر يصادم أهواءهم ، فالسواد الأعظم فى خـــسران ، والقلـــة القليلة هى الناجية ، أترى أن مخاطبة السواد الأعظم بعكس ما يعتقـــدون يـــرد معرى من الدليل ، لا أظنك توافق على هذا ، والإحالة على التاريخ والحادثات السالفة أمر يعرفه الحاذقون فى مخاطباتهم ، وللاتكاء على تقلبات العـــصور ، و أحوال الزمان أثر بالغ فى الإقناع لا يسد سواه مسده ؛ لأنه واقع محسوس وهو فى طريق المخاطبين يبصرونه فى كل مكان ، ومنه فى جزيرة العرب الكثير مثـــل مدائن صالح ، و أرض عاد الأولى ، فقد نزع الذكر الحكيم منزعا إقناعيا بديعا يناسب الحقيقة التى أقسم عليها ، والتى تناقض هوى السواد الأعظم من النـــاس ، فقد جاء القسم بالعصر مقتضى لهذا الحال ، ولم يرد لفظ العصر فى غير هـــذا الموضع فى الذكر الحكيم .

وربما يرد سؤال هو : لماذا جاء القرآن هنا بلفظ ملبس حمال وجوه ، ولم يقـــل والزمان ، أو والدهر ؟ والجواب : أنه لم يقل والدهر حتى لا يـــصادف هـــوى الدهريين ، وقد كانوا موجودين زمن نزول القرآن الكريم " وقالوا ما هـــى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . . . " (الجاثية / ٢٤) فوق أن

العصر بمعنى الزمن معروف عند العرب ، و إليك قول امرئ القيس شاهدا على ذلك : ــ

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى　　　وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

هذا بالإضافة إلى أن القسم بالعصر يحضر إلى الذهن معنى المصدر من (عصر) وهو ما يناسب المقسم عليه حيث إن الناجين هم عصارة جنس الإنسان ، لأن العصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء ــ كما قال : البقاعى ــ ([1]) ، هذا وليس ببعيد ما ذكره الأئمة من أن المراد بالعصر وقت الأصيل ، لأنه يشبه الموت ، و أفول الحياة ، وفيه دليل قدرة ، وفيه أيضا تناسب مع المقسم عليه من قلة الناجين إذا ما قيست بالهالكين ، وهو على أى حال ناظر إلى السياق القرآنى فى أقسامه على مستوى الترتيبين (ترتيب النزول ، وترتيب المصحف) حيث إن سورة العصر فى النزول بعد سورة الضحى ، وسورة الضحى فى النزول بعد سورة الفجر هكذا (الفجر ــ الضحى ــ العصر) فهى توقيتات مرتبة ، وكذلك ترتيب المصحف الشريف ، وهذا أيضا وجه .

هذا ومن ثراء التعبير القرآنى أن اللفظ هنا جاء حمال وجوه ؛ليناسب المقسم عليه ؛ لذا لو قال هنا : والضحى ، أو والفجر ، لما ناسب المقسم عليه لما فى الفجر من دليل الحياة والبعث ، ولما فى الضحى من الراحة والأنس ، وهو ما لا يلائم حال النزول ، ولا مقصد السورة الكريمة ، هذا وفى افتتاح السورة بالقسم أيضا تأكيد لمضمون الخبر ، وكشف عن أهميته ، وهو مما يلفت الانتباه ، وينشط الأذهان لتلقى الخبر .

([1]) نظم الدرر ٨ /٥٢٢ .

(إن الإنسان لفى خسر) هذه الجملــة الأولى فى جــواب القــسم ، وهــذا التركيب من خصائص السورة الكريمة ، وقد افتتح جــواب القــسم بجملــة مشحونة بالتوكيدات (إن ــ اسمية الجملة ــ اللام) تأكيدا للحجة ، وقطعــا للعذر ، وقد عقد بعضهم السورة بحال النزول ، فذكر أن المراد بالإنسان أبــو جهل والوليد . . . الخ ([1]) كما أسلفنا ، وعليه فاللام للعهد ، وكونها للعهــد حينئذ فيه تأييد للقلة المؤمنة إذ انتقم الله لهم بإنزال تعذيبهم فى كتابــه ، وهــم أحوج ما يكون آنئذ إلى التثبيت، وقد ذهب الأكثرون إلى أن اللام للجنس ([2]) بقرينة الاستثناء ، وهو ما يستوعب جنس الإنسان عبر الزمان والمكان ، فقرائن النزول صرفت الخطاب إلى أشخاص معهودين ، فقد كان أبو جهل يقــول : إن محمدا لفى خسار ، وما من ريب فى أن هؤلاء الذين ذكرهم العلماء فيما أسلفنا يتكررون عبر الأزمنة ، وفى كل الأمكنة ، فتكون اللام للعهد حــين الــنزول ، وتكون للجنس فى الزمان كله ،وهذا من مرونة التعبير القرآنى .

وقوله : ــ (لفى خسر) تهويل لقدر الخسران الذى يطوى الإنــسان طيــا ، ويحيط به من كل جانب ، بقرينة حرف الوعاء (فى) فقد " شــبهت ملازمــة الخسر بإحاطة الظرف بالمظروف ، فكانت أبلغ من أن يقال : إن الإنسان لخاسر ، ومجئ هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد فى جوابه يفيد

([1]) البرهان فى توجيه متشابه القرآن ٣٠٣ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٢٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٢٦٩ ، فتح القدير ٥ / ٤٩١ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٠ / ١٥٩.

([2]) بحر العلوم ٣ / ٥٠٨ ، الكشاف ٤ / ٢٨٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٢٦٩ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٢٤ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٤ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٧ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٣٩٦ ، فتح القدير ٥ / ٤٩١ .

التهويل و الإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس " ([1]) والتنكير فى خسر للتعظيم والتهويل ، فقد أثبت له بذلك جهات الخسر كلها فى الدنيا والآخرة ، وهو تعميم مناسب لحال المسند إليه ، ومستوعب كل ألوان الخسران الذى يستجد عبر الزمان ؛ لذا جوز الشهاب و الآلوسى ــ رحمهما الله ــ أن يكون التنكير للتنويع ([2]) ، هذا ، وفى لفظ الخسر من التعميم ما يناسب لفظ الإنسان (المسند إليه)

هذا ، وحين تبصر تركيبا بهذه المعانى ، وتلك الإيحاءات فى ضوء حال النزول تراه مطابقا للحال أحسن ما تكون المطابقة ، فقد كان الخسران يحيط بمعظم جنس الإنسان آنئذ ، ويعمى رؤية الحقائق ، فقد كان الكفر يطويهم طيا ، ويحيط بهم من كل جانب ، وقد صورهم التركيب القرآنى مغمورين فى الخسران ، بهذه الصورة القبيحة المستبشعة ؛ تكريها لحالهم ؛ و تثبيتا للمؤمنين على ما هم عليه ؛ ليزدادوا استمساكا بدينهم ، وليكونوا أجلد فى تحمل ما ينالهم من أذى فى سبيل ما هم فيه من ربح عظيم ، هذا ، وقد خوطب الكافرون بلغة التجارة ــ التى لا يخيفهم سواها ــ فذكر الخسر ليفهم أن الربح فى الطرف الآخر ، و أنهم بهذا الطريق سيفلسون ، وتلك لغتهم التى تلائم حالهم .

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٣١ .

([2]) حاشية الشهاب ٨ / ٣٩٦ ، روح المعانى ١٥ / ٤٥٨ .

هذه الألفاظ وقعت فى مواطن أخرى من الذكر الحكيم ، إلا أن ما هنــا أجمع ما فى القرآن الكريم فى استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من حكــم سابق ، وقد وقعت مستثنى من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون فى قوله : ــ تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون و أنهم يقولون مــا لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعــد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون " (الشعراء ٢٢٤ : ٢٧)
وفى سورة (ص) جاءت الذين آمنوا وعملوا الصالحات استثناء من الخلطــاء الباغين (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه و إن كثيرا مــن الخلطــاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هــم . . .) (ص / ٢٤) ووقع الموصول وصلته مستثنى من التبشير بالعــذاب الألــيم (فبشرهم بعذاب أليم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنــون) (الانشقاق /٢٤ ، ٢٥) ، ووقع الموصول وصلته مستثنى مــن ردهــم أســفل سافلين (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الــذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) (التين / ٤ : ٦)
وحين نبصر المستثنى منه فى السورة الكريمة هنا نرى أن الخسر يجمع كل هــذه الألوان (الشعراء الغاوون ــ الخلطاء الباغون ــ المبشرون بالعذاب الألــيم ــ المردودون إلى أسفل سافلين) فالتركيب هنا أوجز التراكيب ، و أجمعها ، هذا ، وقد تأول العلماء الذين آمنوا بأن المقصود أبو بكر ، و أن المقــصود بــــ (و

عملوا الصالحات) عمر (وتواصوا بالحق) عثمان (وتواصوا بالصبر) على — رضى الله عنهم ([1])

وهم فى هذا التأويل ناظرون إلى حال النزول ، والمواجهة بالخطاب ، وقد رده الشوكانى حيث قال : " ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة ، و لا وجه لما قيل : من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح " ([2]) وقال الآلوسى : " والمراد بالموصول كل من اتصف بعنوان الصلة ، لا على كرم الله وجهه وسلمان الفارسى — رضى الله عنه — فقط ، كما يتوهم من اقتصار ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — فى الذكر عليهما ، بل هما داخلان فى ذلك دخولا أوليا "([3]) و الذى يخرج من هذا هو النظر إلى الخطاب باعتبارين حال النزول ، فيكون ما ذهب إليه الأولون صوابا ، وبالنظر إلى التراكيب فى ضوء الزمن كله يكون المراد بالموصول كل من اتصف بالصلة .

المهم أن الاستثناء جعل الناس فريقين خاسرين — وهم السواد الأعظم — ورابحين — وهم القلة ، والمستثنى مرتب ترتيبا عجيبا ، حيث وصفوا بالإيمان ، ثم بالعمل الصالح ، ثم بالتواصى بالحق ، ثم بالتواصى بالصبر ، وكل ما ذكر بعد الإيمان خارج من عباءته ، مستكن فى طياته ، من باب عطف الخاص على العام ؛ تشريفا لهذا الخاص ، و إيلاءه مزيد عناية واهتمام ، ومن الواجب ذكره هنا أن قوله : (وتواصوا بالحق) من خصائص السورة الكريمة ، وقوله : (

([1]) بحر العلوم ٣ / ٥٠٩ ، البرهان فى توجيه متشابه القرآن ٣٠٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٢٧٠ .

([2]) فتح القدير ٥ / ٤٩٢ .

([3]) روح المعانى ١٥ / ٤٥٨ .

وتواصوا بالصبر) لم يرد إلا فى موضعين فقط من الذكر الحكيم أحــدهما هــذا الموضع ، والثانى فى سورة البلد (ثم كان من الذين آمنوا وعملــوا وتواصــوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) (البلد / ١٧) ومع أن التركيب ذكر فى الـــسورتين إلا أن موقعه فى سورة العصر له خصيصة يمليها السياق حيث جاءت هنا منتهى الوصف .

وقوله : (وتواصوا بالحق) ذكر الطبرى عن قتادة والحسن " أن الحق كتــاب الله " ([1]) ولم يرد هذا التركيب فى غير هذه السورة ، فكأنه جمع كــل أوامــر القرآن ونواهيه ؛ لذا حق للشافعى ـــ رضى الله عنه ـــ أن يقول إنها أجمع ما فى القرآن ، والملحوظ أن الصيغة هنا تجاوزت فعل الحق والانصياع لــه إلى أمــر أعلى ، وهو التعاون على الحق ، ودفع كل مؤمن صاحبه إلى الحق دفعا لإقامــة مجتمع متناصح متكامل ، وهو مناسب للدعوة فى حال الــنزول ؛ بثــا لــروح التعاون على الحق ؛ و تقوية لهذه القلة ببث مسالك الجمع بينــهما ، فيــشتد عودها ، ويقوى قليلها بالاجتماع على الخير ، ثم جاء بعد ذلك بالتركيب الذى ينتج عن التواصى بالحق ، حيث إن البقاء على الحق والتواصى به مع القلة ينتج عنه اشتداد الأذى من ذلك السواد الأعظم الخاسر ، وهذا يعنى أن الباقى علــى الحق لا ينبغى له أن يظن أن بقاءه على الحق سيجعله بمنأى من الأذى ، بــل إن بقاءه يستوجب أشد الأذى ؛ لذا جاء بالأمر بالتواصــى بالــصبر (وتواصــوا بالصبر) وبهذه الصيغة الرائعة ترى مجتمعا متراحما متناصحا " والصبر المــذكور داخل فى الحق ، وذكر بعده مع إعادة الجار والفعل المتعلق هو به لإبراز كمــال العناية به ، ويجوز أن يكون الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى

([1]) جامع البيان ٣٠ / ١٨٧ .

الله ــ تعالى ــ والثانى : عبارة عن رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعــل الله ــ تعالى "([1]) وكل هذا مما يلائم حال النزول الذى ذكرنـــاه أحـــسن الملاءمـــة ، ويطابقه أتم ما تكون المطابقة ، وقد كرر الفعل (وتواصوا) تناسبا مع اشـــتداد الأذى النازل بهم ، وكان من الممكن أن يكون النظم : وتواصوا بالحق وبالصبر ، لكنه جاء كذلك ؛ إلماعا إلى وجوب شيوع التآمر بهما ، و أن يكـــون ذلـــك ديدنا للمؤمنين ، بلسان الحال أو المقال ، وهو ما يشير إليه اصـــطفاء لفـــظ (وتواصوا) على تناصحوا وغيره ، قال النيسابورى : " وفى لفظ التواصـــى دون الدعاء أو النصيحة تأكيد بليغ كأنه أمر مهتم به كالوصية "([2]) فـــوق مـــا فى التواصى من الإشفاق والخوف على الموصى ، و أهمية الموصى به .

وقد " اختير التعبير بالوصية ؛ إشارة إلى الرفق فى الأمر بالمعروف ، والنهى عـــن المنكر ، واستعمال اللين بغاية الجهد والصبر ، الذى هو خلاصـــة الإنـــسان ، وسره ، وصفاوته ، وزبدته ، وعصارته ، الذى لا يوصـــل إليـــه إلا بـــضغط الإنسان لنفسه ، وقسرها على أفعال الطاعة ، وقهرهـــا علـــى لـــزوم الـــسنة والجماعة ، حتى يصير الصبر لها بالتدريب عادة وصناعة " ([3]) هذا ، وقد عـــبر بالماضى ، ولم يعبر بالمضارع " لئلا يقع أمرا بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم فى الماضى ، وذلك يفيد رغبتهم فى الثبات عليه فى المستقبل " ([4]) ، وفيـــه أيـــضا بشارة للمواجهين بالخطاب ــ حال النزول ــ بأن أعمالهم قد قبلت ، وذلـــك ألصق بحالهم ، و أدخل فى تثبيتهم .

([1]) روح المعانى ١٥ / ٤٥٨ .

([2]) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٠ / ١٦٠ .

([3]) نظم الدرر ٨ / ٥٢٤ .

([4]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٢٩ .

وهنا ملحظ لطيف ، أنه ذكر الخسر ، ولم يذكر الربح ، و إنما ذكر سببه ، قال البيضاوى : " ولعله ــ سبحانه وتعالى ــ إنما ذكر سبب الربح دون الخسران ؛ اكتفاء ببيان المقصود " ([1]) وشئ آخر ، هو التأكيد على تحقق الربح فى جانبهم ، و أن ذلك قد حذف لتعينه واشتهاره ، وفيه مزيد مبالغة ، ومزيد بشارة ، إذ قد صار أشهر من أن يعين .

خلو السورة من الأسماء الحسنى وملاءمته المقام .

الذى أبصره أن السورة الكريمة خلت من الأسماء الحسنى ؛ زيادة توكيد للحقيقة التى ساقتها السورة الكريمة ، ودارت تراكيب السورة حولها ، وهى خسران السواد الأعظم ، وربح القلة القليلة ؛ جريا على عادة العرب فى إظهار الثقة بالقول فى مواجهة الخصم ؛ إشارة إلى أن هذه الحقيقة ــ مع عظمها ــ هى صادقة فى نفسها دون أن تنسب إلى عظيم ، وهو الأنسب لحال الدعوة ، ولكل حال تستجد مشابهة حال نزول السورة الكريمة ، فقد سيقت هذه الحقيقة الكبرى ، كأنها مسلمة من المسلمات التى يهدى إليها العقل والنظر ، فوق أن ذكر اسم من الأسماء الحسنى فى السورة سيفتح بابا للمشاحة والجدل ، وهو ما يريد القرآن الكريم بتراكيبه إغلاقه فى وجههم بكل سبيل ، بالتعويل على النظر والاعتبار بحادثات التاريخ ، هذا ما ظهر لى فى خلو السورة الكريمة من الأسماء الحسنى .

([1]) أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٥ .

تراكيب السورة تلائم الزمان كله

سبق أن أشرنا إلى أن تراكيب السورة من أوجــز التراكيــب فى بابهـا ، وأن العلماء ذكروا أن الأعلى فى المراد بالعصر : الدهر ، وفيه تعويل كـبير علـى حادثات التاريخ ، وهذا أمر قائم مستمر إلى يوم الدين ، كما ذكروا أن الأعلى فى لام الإنسان أنها للجنس ؛ لتستوعب كل إنسان فى كل زمان ممن انخــرط فى سلك الخسران ، وكذلك ما ذكروه من أن المراد بالموصول كل مـن اتـصف بعنوان الصلة ، وقد أثبتت حادثات التاريخ أن التواصى بـالحق ، والتواصـى بالصبر ، هما أساس بقاء الأمة الإسلامية من بعد الإيمان وعمل الـصالحات ، و أن هذه هى أركان بقاء الأمة ، وقد وقعت الألفاظ هنا مكسوة برداء التعمـيم لتطوى فى رحمها كل مستجدات الزمان ، مما يجمع المسلمون على كونه حقـا ، كما أثبتت الحادثات أن كل من استمسك بالحق ناله عظيم الأذى ، ولا يغيـب عنا محن العلماء من قبل كالإمام مالك ، و الإمام أبى حنيفة ، و الإمام أحمد ابن حنبل وغيرهم ، وقد أخبر الصادق ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه سيأتى زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر ، فالسورة باقية عبر العصور لتلائم حال المستمسكين بالحق ، وهم القلة القليلة ــ كما أخبر ربنا ــ سبحانه وتعـالى ــ وقد أبصرت فى التحليل ، كيف تذهب طائفة من الأئمة إلى تخصيص مـا ورد معمما بالنظر إلى حال النزول ، وتذهب طائفة أخرى إلى إبقـاء المعمـم علـى إطلاقه ، وذلك يناسب الزمان كله .

الفصل الثالث

سورة الماعون

موقع السورة فى الترول ودلالته

السورة الكريمة هى السابعة عشرة فى الترول على هذا الترتيب (العلق ــ القلم ــ المزمل ــ المدثر ــ الفاتحة ــ المسد ــ التكوير ــ الأعلى ــ الليل ــ الفجر ــ الضحى ــ الشرح ــ العصر ــ العاديات ــ الكوثر ــ التكاثر ــ الماعون) وسورة الماعون تسير فى اتجاه واحد مع سورة الماعون ، فالتكاثر مفتتحة بقوله : ــ تعالى ــ (ألهاكم التكاثر) (التكاثر / ١) و الاتكاء على المال والمكاثرة به يدفعان إلى أقبح الأعمال ، و يورثان أخس الطبائع التى تتحدث عنها سورة الماعون ، من دع اليتيم ، وعدم الحض على طعام المسكين ، ومنع الماعون ، وكلها غاية فى القبح ، ولك أن تقارن بين تراكيب السورتين ، لتبصر التناسب العجيب ، تأمل التهديد الفريد هناك (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) (التكاثر / ٣ ، ٤) وانظره فى الماعون (فويل للمصلين) وهناك لطيفة أخرى فى التناسب ، هو أن سورة التكاثر خلت من التصريح باسم من الأسماء الحسنى ، وهو و إن كان مقدرا عند قوله : ــ تعالى (لترون الجحيم) (الآية / ٦) غير أنه لم يصرح به ، و ذلك من أنماط التهديد العليا ، وقد جاءت سورة الماعون بعدها خالية من أسماء الله الحسنى تصريحا وتقديرا ، فهما يسيران فى اتجاه واحد ، فى مخاطبة فئة ضالة تحاربه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أشد الحرب .

هذا وقد نزلت سورة التكاثر بعد الكوثر ، والكوثر دفاع عنه ــ صلى الله عليه وسلم (إن شانئك هو الأبتر) (الآية / ٣) فجاءت السورتان (الكوثر والماعون) فضحا لشانئيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكشفا عن سر معاداهم له ــ صلى الله عليه وسلم ــ أما عن السر فهو المكاثرة بالمال والولد ، و أما فضيحتهم فبكشف بخلهم الشديد للناس كافة ، وخلو قلوبهم من الرحمة ، ووصفهم بأشد الغلظة ، وهل وراء منع الماعون بخل ؟ ! وهل وراء دع اليتيم غلظة ؟ !

وهكذا إذا تتبعت سياق النزول سترى عجبا يكشف لك عن بلاغة غائبة فى الذكر الحكيم ، والمهم هنا التأكيد على أن السورة الكريمة نزلت فى سياق يتجه إلى تثبيته ــ صلى الله عليه وسلم ــ و المؤمنين من حوله ، ومحاربة أعدائه.

موقع السورة فى الكتاب العزيز ودلالته

السورة الكريمة هى السابعة بعد المائة فى الكتاب العزيز ، وهى فى المصحف الشريف بعد سورة قريش ، وقبل سورة التكاثر ، وحين تبصر هذا الموقع ترى عجبا ، فسورة قريش امتنان على قريش ، بنعمتى الأمن النفسى والجسدى ، وقد كان لرحلتى الشتاء والصيف الأثر البالغ فى الاستقرار النفسى والجسدى ؛ لذا قال ربنا (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف) (قريش / ٣ ، ٤) ثم تأتى سورة الماعون لتفضح هؤلاء الذين نسوا أو تناسوا ما ذكرهم به سورة قريش ، فدعوا اليتيم ، و لم يحضوا على طعام المسكين ، و منعوا الماعون ، ونسوا أن الذى يأمرهم بالرفق باليتيم والمسكين ، وبذل الماعون وما فوقه ، نسوا أنه هو الذى أطعمهم وسقاهم ، و آمنهم من

خوف ، وجاءت سورة الكوثر بعدها ؛ تأييدا له ــ صلى الله عليــه وســلم ــ وذبا عنه .

وقد رجع ابن الزبير بمناسبة السورة إلى سورة العاديات ، حيث قــال : " لمــا تضمنت السور المتقدمة من الوعيد لمن انطوى على ذكر ما فيها ــ مما هو جــار على حكم الجهل ، والظلام الكائنين فى جملة الإنسان ــ ما تضمنت كقوله : ــ تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) (العاديات / ٦) ، وقولــه : (إن الإنــسان لفى خسر) (العصر / ٢) و قوله : (يحسب أن ماله أخلده) (الهمزة / ٣) و انجر أثناء ذلك مما تثمره هذه الصفات الأولية ما ذكر أيضا فيها ، كالــشغل بالتكاثر والطعن فى الناس و لمزهم ، و الاغترار المهلك أصحاب الفيل ــ أتبــع ذلك بذكر صفات قد توجد فى المنتمين إلى الإسلام ، أو يوجــد بعــضها ، أو أعمال من يتصف بها ، و إن لم يكن من أهلها ، كدع اليتيم ، وهو دفعه عــن حقه ، وعدم الرفق به ، وعدم الحض على إطعام المسكين ، والتغافل عن الصلاة والسهو فيها ، و الرياء بالأعمال ومنع الزكاة والحاجات التى يضطر فيها الناس بعضهم إلى بعض ، ويمكن أن يتضمن اسم الماعون هذا كله ، و لا شك أن هذه صفات توجد فى المنتمين إلى الإسلام ، فأخبر ــ تعالى ــ أن من صــفات مــن يكذب بالدين ، و لا ينتظر الجزاء والحساب . . . فأخبر ــ تعالى ــ أنهــا مــن صفات من يكذب بالدين . . . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، فاحذروا الرذائــل فإن دع اليتيم من الكبر الذى أهلك أصحاب الفيل ، وعدم الحض على إطعامه إنما هو من فعل البخيل الذى يحسب أن ماله أخلده ، والسهو فى الصلاة ثمــرة

إلهاء التكاثر ، والشغل بالأموال و الأولاد ، فنهى ـــ سبحانه ـــ عباده عن هذه الرذائل التى ثمرها ما تقدم ، و التحمت السور " ([1])

تأمل ، كيف أبصر ـــ رحمه الله ـــ تراكيب السورة فى نور سوابقها ، فقوله (يدع اليتيم) ناظر إلى سورة الفيل ، وقوله (يحض على طعام المسكين) ناظر إلى سورة الهمزة ، وقوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) ناظر إلى سورة التكاثر ، و أضيف أن قوله (أرأيت الذى يكذب بالدين) ناظر إلى سورة العاديات ، كأن سورة الماعون مع ما سبقها بمثابة السبب ، وما قبلها بمثابة المسبب ، وسياق التهديد والوعيد يقدم ذكر النتائج ، ويؤخر ذكر أسبابها ؛ لن الترهيب يلائمه ذكر مغبة الشئ ونتيجته ، فالأعمال بثمارها ، ولا يلائمه ذكر الأسباب ، ثم ذكر النتائج ؛ لأن حال الخطاب ليست حالا معتادة ، و إنما هى حال غير معتادة ، فلاءمها خطاب على غير العادة أيضا .

ثم تأمل نظر ابن الزبير ـــ رحمه الله ـــ و قراءته البصيرة لمواقع السور فى الكتاب العزيز ، حين يبصر سورة الكوثر التى تلت سورة الماعون فى سياقها فى المصحف الشريف حين يقول : " لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا و زينتها من الإكثار والكبر والتعزز بالمال والجاه ، وطلب الدنيا أتبع ذلك بما منح نبيه ، مما هو خير مما يجمعون ، وهو الكوثر . . . { إلى أن يقول بعد تفضيل عطاءات الله نبيه ـــ صلى الله عليه وسلم } فقد اضمحل فى جانب نعمة الكوثر الذى أوتى كل ما ذكره ـــ تعالى ـــ فى الكتاب من نعم أهل الدنيا ، وتمكن من تمكن منهم ، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة فلم يقع بعدما ذكر شئ من نعيم الدنيا ، و لا ذكر أحدا من المتمتعين فيها ؛ لا نقضاء هذا الغرض وتمامه ، وسورة

([1]) البرهان ٢٤١ ، ٢٤٢ .

الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شئ من ذلك ، كما تقدم من تمهيد إشـــارتها ، وتبين بهذا وجه تعقيبها " ([1])

تأمل كيف وضع اليد على موقع سورة الماعون ، وتعقيبها بـــسورة الكـــوثر ، وكيف أن الماعون آخر السور حديثا عن قبائح الكافرين والمنافقين ورذائلـــهم ، و كأنها تشكل نهاية المطاف مع من تدعوه إلى الخير فيأبى ، فتكشف له عن سبب استمساكه بالشر لتفضحه أمام نفسه ، فهى خطاب للميؤوس مـــن هدايتـــه ، الذى أعيتك سبل الملاينة معه ، و أيقنت أنه من الضالين ، هذه طريقة علمائنـــا فى النظر الكلى إلى تراكيب الذكر الحكيم قبل قرون ، وقبـــل أن نـــسمع بمـــا يسمى الفضاء النصى بمئات السنين ، ثم يرمى تراثنا بما يرمى به .

هذا وقد المع الفخر الرازى السيوطى ـــ رحمهما الله ـــ إلى أن سورة الكـــوثر وقعت كالمقابلة للتى قبلها ، وذلك أن السابقة وصف الله ـــ سبحانه ـــ فيهـــا المنافقين بأربعة أمور (البخل ـــ ترك الصلاة ـــ الريـــاء فى الـــصلاة ـــ منـــع الزكاة) وذكر فى هذه السورة فى مقابلة البخل (إنا أعطينـــاك الكـــوثر) وفى مقابلة ترك الصلاة (فصل) وفى مقابلة الرياء (لربك) وفى مقابلة منع الماعون (وانحر) و أراد به التصدق بلحوم الأضاحى ([2]) وهـــذا إيمـــاء إلى تناســـب الأغراض لتجاور السور ، فهى علاقة تضاد ومقابلة ، كما أنـــه يـــومئ إلى أن تراكيب كل سورة تتشارب من تراكيب سابقتها و لا حقتها ، بحيث لا يـــصلح بلاغيا نزع سورة من موقعها ؛ لأن نزعها من موقعها يطفئ كـــثيرا مـــن نـــور تراكيبها ، ويذهب كثيرا من معانيها .

([1]) البرهان ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

([2]) مفاتيح الغيب ٨ / ٧٠٠ ، وتناسق الدرر فى تناسب السور ١٥٨ .

وقد ذكر البقاعى أن سورة الماعون تبين كيفية الشكر على النعمة الذى أمـــروا به فى آخر قريش (فليعبدوا رب هذا البيت) (قريش / ٣) ([١]) وهو وجه فى التناسب أيضا ، كأن السورة كالبيان والشرح لما ختمت به ســـابقتها ، ونقـــل الشيخ الجمل عن أبى حيان فى البحر " أنه لما عدد نعمه ــ تعالى ــ على قريش وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء أتبع امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم بالعذاب " أى : كأن السورة إلهاب وتهييج للحث على تنفيذ ما ختمـــت بـــه سابقتها ، وهكذا كل من أبصر السورة فى سياقها يمنح من بحر علم المناسبات ما لم يمنحه صاحبه ، وذاك باب لا تنقضى عجائبه .

([١]) نظم الدرر ٨ / ٥٤١ .

حال النزول

سبق أن أسلفنا أن السورة الكريمة هى السابعة عشرة نزولا ، وهذا يعنى أنها نزلت فى بواكير الدعوة الإسلامية ، حين كان المؤمنون قلة قليلة ، ولم يؤمن مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حينئذ من تشتد به شوكة المسلمين ، ويخشاه أعداء الدين ، ويمكن أن يكون نزول السورة فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة ، وقد كان المؤمنون ينالون أشد الأذى حينئذ ، ولم يستطع الرسول — صلى الله علبيه وسلم — أن يدفع عنهم هذا الأذى .

وقد ذكروا أقوالا فيمن نزلت فيهم السورة تعين على الكشف عن حال النزول ، فقد رووا أنها نزلت فى أبى جهل ، وروى أنه كان وصيا ليتيم ، فجاءه وهو عريان ليسأله شيئا من مال نفسه ، فدفعه ولم يعبأ به ، فأيس الصبى فقال له أكابر قريش : قل لمحمد يشفع لك ، وكان غرضهم الاستهزاء ، ولم يعرف اليتيم ذلك ، فجاء إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — والتمس منه ذلك ، وهو — عليه الصلاة والسلام — ما كان يرد محتاجا ، فذهب معه إلى أبى جهل فرحب به ، وبذل المال لليتيم ، فعيرته قريش ، فقالوا : صبوت ! فقال : لا ، والله ما صبوت ، لكن رأيت عن يمينه ، وعن يساره حربة فخفت — إن لم أجبه — يطعنها فىّ " ([1])

([1]) ينظر مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦٢ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٣ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٠ / ١٧٢ ، زادة على البيضاوى ٤ / ٧٠٠ .

ورووا أنها نزلت فى العاص بن وائل السهمى ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة ، و الإتيان بالأفعال القبيحة " ([1]) وقال ابن جريح : نزلت فى أبى سفيان كان ينحر جزورين فى كل أسبوع فأتاه يتيم ، فسأله لحما فقرعه بعصاه " ([2]) وقالوا غير ذلك ، وكل ما ذكر من الأسباب يكشف لنا أن السورة نزلت مطابقة حال النزول ، فاضحة دواخل من يؤذى الضعفاء ، وهى عامة فى كل من صدر منه ذلك ، وقد رووا أيضا أنها نزلت فى منافق .

و للإمام محمد عبده كلمة جيدة فى هذا الباب تكشف حال النزول حيث يقول : " والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشركين — ممن كان منهم فى زمنه — صلى الله عليه وسلم — كانوا يظنون أنهم يصدقون بالدين و لايكذبون به ، وغرتهم صلاتهم وصيامهم ، مع أنهم كانوا فى أبعد طريق عن حقيقة دينهم ، يشهد بذلك ما كان بينهم من التنافس فى الباطل ، واستعباد قويهم لضعيفهم ، و بخل غنيهم بالمعروف يفيض به على فقيرهم ، و مع ذلك كان كل فريق منهم يعد نفسه صاحب الحظوة عند الله ، ويحسب كل من خالفه فى مسقط النقمة ، فأراد الله — جل شأنه — أن يعلمنا من هو المكذب بالدين ، ومن تعريف المكذب به يعرف المصدق به على الحقيقة " ([3])

([1]) بحر العلوم ٣/ ٥١٨ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦٢ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٠ / ١٧١ ، فتح القدير ٥ / ٤٩٩ .

([2]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣٠٠ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٨ ، فتح القدير ٥ / ٤٩٩ .

([3]) تفسير جزء عم ١٢٣ .

هذا وقد اختلف العلماء حول السورة ، أ مكية هى أم مدنية ؟ على ثلاثة أقوال :ـ

الأول : أنها مكية ، وهو قول الجمهور .

الثانى : أنها مدنية ، وهو قول أبى قتادة ، و أحد أقوال ابن عباس .

الثالث : أن أولها مكى إلى آخر قوله :ـ تعالى (و لا يحض على طعام المسكين) ، وبقيتها نزلت بالمدينة ؛ بناء على أن قوله :ـ تعالى (فويل للمصلين . . .) إلى آخر السورة أريد به المنافقون ، وهو مروى عن ابن عباس أيضا ، وقد استظهره بعض المفسرين المحدثين ([1])

وهذا الخلاف يكشف لنا نظر علمائنا إلى السورة فى ضوء حال النزول ، وما يلائم حال النزول من التراكيب جعلوه مكيا ، وما يلائم حال النزول فى المدينة جعلوه مدنيا ، و هذا أمر جيد يؤيد طريقتنا فى هذا البحث ، غير أننى أضيف أن الحال الذى تنزلت عليه السورة فى كل تمثل نموذجا يتكرر عبر الزمان و المكان ، كما ذكرنا غير مرة ، و إننى فى ريب من القول الثالث ؛ لأننى أبصر أن قوله : (و يمنعون الماعون) الذى جاء معطوفا على سابقه يلزم من قال بمدنية الآيات الأخيرة ، أن يصدق على الكافرين هذه الأوصاف (التكذيب بالدين ــ دع اليتيم ــ عدم الحض على طعام المسكين) مع أن منع الماعون كان من صفات الكافرين حال النزول ، و لا أدل على ذلك مما حدث من الحصار و التجويع للمسلمين ، ومن وقف بجانبهم من المشركين ، كما أنه يلزمهم أيضا ألا

([1]) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣٠٠ ، فتح القدير ٥ / ٤٩٩ ، الإتقان ١ / ٢٢ ، تفسير الجلالين ٤ / ٥٩٢ ، روح المعانى ١٥ / ٤٧٤ ، فى ظلال القرآن ٦ / ٣٩٨٤ ، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٦٣ .

تصدق هذه الأوصاف على المنافقين ، وهذا غير مقبول ؛ لأن من قدر إلى إبطان الكفر و إظهار الإيمان كان على دع اليتيم أقدر ، أخلص من هذا إلى أن قوله : ـــ تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يـــراؤون) لا يطعن في كون السورة مكية ، بحجة أنه خطاب لأهل المدينة ، لا لأهل مكة ؛ لأن النفاق لم يكن قد ظهر بعد ، لأنه يمكن تخريجه على أنه وعيد وتهديد بطريق أبلغ ؛ فإنه إذا المصلون الساهون المراؤون على هذا النحو من الخطر ، فما حال من لم يؤمن ؟ ! و ربما يرشح ذلك ما ذكره ابن عاشـــور ، مـــن أن وصـــفهم بالمصلين تهكم ، والمراد عدمه ([1]) فيمكن على ذلك إسقاط الاحتجاج بمدنيتها ، أو مدنية النصف الثاني من السورة .

التصور الجملي للسورة

السورة الكريمة مكونة من ثلاث جمل : ـــ

الأولى : (أرأيت الذى يكذب بالدين)

الثانية : (فذلك الذى يدع اليتيم و لا يحض على طعام المسكين)

الثالثة : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يـــراؤون و يمنعون الماعون) و الجملة الأولى تتحدث عن التكذيب بالـــدين ، والجملتـــان التاليتان تكشفان مظاهر التكذيب بالدين وعواقبه ، والسورة الكريمة تتظـــاهر على بيان أن التكذيب بالدين هو أبو الخبائث .

([1]) التحرير و التنوير ٣٠ / ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

تراكيب السورة فى ضوء حال النزول

الافتتاح بالاستفهام ، وما وراءه من اللطائف

(أرأيت الذى يكذب بالدين) ست سور فى الذكر الحكيم افتتحن بالاستفهام ، هذه السورة ، وسور (النبأ ـــ الغاشية ـــ الشرح ـــ الفيل ـــ الإنسان) وكلهن مكيات عدا سورة الإنسان ، وسورة الماعون آخر السور المفتتحة بالاستفهام فى الذكر الحكيم ، و للاستفهام أثره البالغ فى تشويق السامع إلى الجواب ، وهذه الإثارة لا تفوت بخروج الاستفهام إلى معان مجازية ، هذا وقد ذكروا أن الاستفهام معناه التعجب ، وقال آخرون : التعجيب ، والثانى هو الأرجح لأن المتكلم هو الله ـــ عز وعلا ـــ و لا يرد عليه ـــ سبحانه ـــ التعجب ، و إنما يعجب غيره ، وما قيل من أن معناه التعجيب هو قول الأكثرين ([1])

و لا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن تأويل الاستفهام ناظر إلى حال النزول ، فلعل خروجه إلى الاستفهام التعجيبى يلائم حال المنافقين ، و ربما يؤيد ذلك ما قرأته للشيخ للصاوى الذى رأى أن الاستفهام يقصد به التوبيخ ، أى : الإنكار التوبيخى ، و لكن اقرأ عبارته " وعلى القول بأن جميعها مكى تكون توبيخا لكفار مكة " ([2]) على أية حال ليس ما ذكر فى كتب البلاغيين جامعا للمعانى

([1]) ينظر مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦١ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٧ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٣ ، زادة البيضاوى ٤ / ٦٩٩ ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٠ / ١٧٢ ، فتح القدير ٥ / ٤٩٩ ، روح المعانى ١٥ / ٤٧٤ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٤ .

([2]) حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤ / ٣٥٥ .

التى يخرج إليها الاستفهام ، وذلك " أن ما تشيعه أداة الاستفهام أرحب و أدق من أن تحدده تحديدا تاما ، و أن المعانى التى يشير إليها هى بطبيعتها خفية وهاربة ، لا تستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة " ([1]) و لا يمتنع أن يراد بـه التـوبيخ فى مخاطبة المنافقين أيضا ، و لا يمتنع أن يراد به التعجيب فى مخاطبة كفـار مكـة وهكذا ؛ لأن القائلين بأن المراد بالاستفهام التعجيب هم القائلون بأن الـسورة مكية ، أو أكثرهم .

" وقد صيغ هذا التعجيب فى نظم مشوق لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت لـه صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى مـن تعـرف المقـصد بهـذا الاستفهام ، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم ، فلا يكـون مثـارا للتعجـب ، فيترقب السامع ماذا يريد بعده ، وهو قوله : (فذلك الذى يدع اليتيم و لا يحض على طعام المسكين . . ."([2]) و لو لم يبن التعجب بطريـق الـسؤال لمـا حدثت هذه الإثارة ، و لا ذلك التشويق ، ولم يتمكن الكلام فى ذهن الـسامع هذا التمكن ، وقد وضح الشيخ عبد القاهر السر وراء اسـتخدام الاسـتفهام للتعجيب و غيره فقال : " و اعلم أنا و إن كنا نفسر الاستفهام فى مثـل هـذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى : أنه ليتنبه السامع حتى يرجـع إلى نفـسه فيخجل و يرتدع ، و يعيى بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على فعل لا يقـدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : فافعل ، فيفـضحه ذلـك . . ." ([3]) إلى آخر ما قال ، ثم إن الأساليب الإنشائية إلهاب ، و إثارة بين المتكلم و المخاطب

([1]) دلالات التراكيب ٢١٨ .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٤ .

([3]) دلائل الإعجاز ١٢٠ .

، أما الأساليب الخبرية فهى أساليب تلقينية ، لكل هذا كان للافتتاح بالاستفهام هذا الفضل ؛ لأن حال النزول حال إيقاظ للمخاطبين ، وتنبيه لهـم ليـتمكن الوعيد فى أذهانهم فضل تمكن لعلهم يرتدعون .

و قد اختلفوا فى (رأى) على قولين ، الأول : أنها بـصرية ، والتقـدير : أأبصرت المكذب ، أو أعرفته ؟ ([1]) والثانى : أنها علميـة بمعـنى : أخـبرنى ، فتتعدى إلى اثنين ، الأول : الموصوف ، والثانى : محذوف تقديره : من هـو ، أو أمصيب هو أم مخطئ ؟ أو أليس مستحقا للعذاب ؟ و استدلوا على ذلك بقراءة (أرأيتك) لأن كاف الخطاب لا تلحـق رأى البـصرية ([2]) و رده الـشهاب وحجته؛ أن كونها بمعنى أخبرنى معنى مجازى يصح فيه كون الرؤية المتجوز بهـا بصرية أو علمية ([3]) كما اختلفوا فى المخاطب بهذا الخطاب على قولين ، أولهما : أنه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ و ثانيهما : أنه عام لكل عاقل ([4])

و إتباع الاستفهام هذا الفعل وراءه لفت للانتباه ، و إثارة للحـس و تنـشيط للنفس ، و كونها بصرية أوقع فى مثل هذا السياق ، لما فى ذلك مـن التعـيين الحسى ، ووراء التعيين الحسى ما وراءه من الترهيب ، أما كونها علمية فتكـون

([1]) الشهاب على البيضاوى ٨ / ٤٠١ ، و زادة على البيضاوى ٤ / ٦٩٩ ، فتح القدير ٥ / ٤٩٩ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٢ ، روح المعانى ١٥ / ٤٧٤ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٥ .

([2]) الكشاف ٤ / ٢٨٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣٠ ، نظم الدرر ٨ / ٥٤١ ، غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٣٠ / ١٧٢ ، و زادة على البيضاوى ٤ / ٦٩٩ ، فتح القدير ٥ / ٤٩٩ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٢ ، روح المعانى ١٥ / ٤٧٤ ، الأساس فى التفسير ١١ / ٦٧٠١ .

([3]) الشهاب على البيضاوى ٨ / ٤٠١.

([4]) جامع البيان للطبرى ٣٠ / ٢٠٠ ، بحر العلوم ٣ / ٥١٨ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦١ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٣ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٤ ، غرائب القرآن ٣٠ / ١٧٢ ، روح المعانى ١٥ / ٤٧٤ ، تفسير جزء عم ١٢٣ ، فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٨٥ .

حوارا فقط بين الله و رسوله على قول من قال : إن الخطاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أما البصرية فهى إلماع إلى المعاينة ، والمعاينة أوقع من الإخبار ؛ لذا قالوا : ليس الخبر كالعيان ، فالعيان أوقع فى إظهار البشاعة ، و لا أبشع مما ذكرته السورة ، و فرق بين أن تقول : أرأيت فلانا ماذا ارتكب ؟ وقصدك الإخبار ، و أن تقول ذلك ، وقصدك الإشارة إلى موجود حاصل ، فكوها بصرية يسير فى اتجاه واحد مع الاستفهام التعجبى أو التوبيخى ، كأنه قيل : أأبصرت المكذب ؟ ما دمت قد أبصرته فلا تعجب من آفات التكذيب من دع اليتيم وغيره مما ذكرته السورة ، هذا ، والقول بأن الخطاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ناظر إلى حال النزول ، و القول بأن الخطاب لكل عاقل يلائم الزمان كله ، و ما يستجد فيه من مظاهر التكذيب بالدين ، وبشاعات المكذبين ، هذا ، و الكفار والمنافقون يملأون الدنيا ، فلا تعارض بين الأقوال ، و إنما التركيب الشريف حمال وجوه ، والعبرة بمنازع تأويلات العلماء كما أبصرنا .

وقد درج أكثر المفسرين على أن المراد باسم الموصول وصلته جنس من اتصف بذلك ، والقول بأنها نزلت فى العاص أو الوليد ، أو غيرهم ممن سبق ذكرهم فى حال النزول تأويل للتركيب فى ضوء حال النزول ، ومثل ذلك من أصرح مقالات الأئمة فى هذا الباب ؛ لذلك تجد الذين قالوا : إن السورة مدنية يقولون : المراد بالذى يكذب المنافق ، و إن كانوا لم يسموه ، وهو تأويل ناظر إلى حال النزول أيضا ، وهى فى نهاية المطاف تأويلات متعانقة ، وليست متعاندة ؛ لأن ما ذكر منظور فيه إلى حال النزول ، و ما هو إلا نموذج يتكرر عبر الزمان والمكان ؛ لذلك قال البيضاوى : و الذى يحتمل الجنس والعهد " ([1])

([1]) أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٧ .

هذا ، ووراء التعبير باسم الموصول الخاص زيادة ترهيب حتى يظن كل مخاطـــب أنه خطاب خاص به وحده ، وفي التخصيص ما فيه من إعلاء نـــبرة التهديـــد ، وزيادة إظهار التشنيع ، و قد ذكر الاسم الموصول إيراد صلة هى محط التشنيع والتبشيع ، وسبب كل المفاسد ، ومجيئها بالمضارع فيه دلالة على تكرار ذلـــك وتجدده ، فهو على بشاعته متجدد متكرر ، و أسباب الفـــساد حـــين تتجـــدد وتكرر ، تستحدث مظاهرها ، وتتكرر مفاسدها أيضا ، و ممـــا ضـــاعف مـــن التبشيع والتشنيع أن الجار والمجرور (بالدين) المتعلق بـــ (يكـــذب) بمـــا فى الدين من العموم الذى يشمل ما ذكره المفسرون من المعانى ، و غير ما ذكـــروه أيضا ، وحين يكون التكذيب بهذا الشمول ، و ذلك العموم ، يكون فى ذلـــك تبشيع لصورة المكذب !

وقد ذكروا أن الدين معناه : الحساب و الجزاء فى الآخـــرة ، أو الإســـلام ، و الإيمان بالبعث والحساب من الإسلام ، لأن الإسلام يتضمن كـــل هـــذا ، و لا يفوتنا أن بناء الآية بناء متميز ، وذلك حين ننظـــر فى حـــديث القـــرآن عـــن التكذيب بالدين ، فقد وقع التكذيب بالدين فى خمسة مواضع أخر من الـــذكر الحكيم (الصافات / ٢٠ ، المدثر / ٤٦ ، الانفطـــار / ٩ ، المطففـــين / ١١ ، التين / ٧) ، وهو فى هذه المواضع ندم على التكـــذيب بالـــدين حـــين يـــرى المكذبون العذاب يوم القيامة ، و ذلك فى الصافات والمدثر ، و إمـــا اســـتبعاد للتكذيب بعد الحديث عن الامتنان ، كما فى سورة التين ، و إما إنكار علـــيهم تكذيبهم بالدين كما فى الانفطار ، أو وعيد و تهديد لهم كما فى سورة المطففـــين ، و لم يرد التكذيب بالدين فى كل هذه المواضع مـــسبوقا بـــرأى البـــصرية أو

العلمية ، وغير ذلك مما ذكرناه ، نخلص من هذا إلى أن تركيب سورة الماعون هو أثرى التراكيب فى الحديث عن التكذيب بالدين ؛ تناسبا مع حال النزول .

آثار التكذيب بالدين

(فذلك الذى يدع اليتيم و لا يحض على طعام المسكين) ذكر العلماء أن الفاء يمكن أن تكون فاء السببية ، أو هى الفاء الواقعة فى جواب شرط محذوف ، والتقدير : إن لم تعرفه فذلك . . . ، ومن ثراء التعبير القرآنى أن الفاء صالحة للأمرين ، فالسببية تفيد أن ما بعدها مترتب على ما قبلها ومسبب عنه ، وهو يفضى إلى أن ما هو آت بعدها من آفات التكذيب بالدين ، وعلى كونها فى جواب شرط محذوف يشير إلى أن ما بعدها شرح ، و تفصيل لآثار التكذيب بالدين ، و فى الحذف معاجلة بما فيه تشنيع عليهم ؛ تلاؤما مع سبب النزول الذى ذكرناه سلفا من أبى جهل دع يتيما عريانا . . . وتنزيل القرآن على الحال فيه تسجيل لشناعته ، وفضح لبشاعته .

هذا ، و فى " إقحام اسم الإشارة ، واسم الموصول بعد الفاء زيادة تشويق ، حتى تقرع الصلة سمع السامع ، فيتمكن فيه أيما تمكن ، وذلك أن أصل ظاهر الكلام أن يقال : أرأيت الذى يكذب بالدين فيدع اليتيم . . . " ([1]) كما أن فى وضع اسم الإشارة موضع الضمير دلالة على التحقير بتمييزه أكمل تمييز ، كما أن فيه إشعارا بعلة الحكم ، و فى الإتيان بالموصول أيضا دلالة على تحقق الصلة ([2])

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٤ .

([2]) روح المعانى ١٥ / ٤٧٥ بتصرف .

هذا ، وعلى كثرة حديث القرآن عن اليتيم والمسكين ، إلا أن تراكيب السورة لها سمات تميزها فى حديثها عن اليتيم والمسكين ليست فى سواها ، هذه السمات تلائم بشاعات أبى جهل ، و أمثاله ممن يتكررون عبر العصور ، وقد تحدث القرآن عن اليتامى فى ثلاثة وعشرين موضعا ، سبعة من هذه المواضع تحذر من قهر اليتيم وبخسه حقه ، وبقية المواضع حديث عن الإحسان إليهم ، و حينما نبصر المواضع التى تحذر من قهره نراها على النحو التالى (و لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . . .) (الأنعام / ١٥٢ ، الإسراء / ٣٤) (و آتوا اليتامى أموالهم و لا تتبدلوا الخبيث بالطيب و لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا) (النساء / ٢) (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) (النساء / ١٠) و أقرب المواضع إلى روح تركيب سورة الماعون تركيبا سورتى الفجر والضحى (كلا بل لا تكرمون اليتيم) (الفجر / ١٧) (فأما اليتيم فلا تقهر) (الضحى / ٩) ، ونلحظ أن كل هذه المواضع لم تتناول الحديث عن قهر اليتيم كتركيب سورة الماعون ، وحسبك من هذا لفظ (يدع) و ما فيه من الدلالة على العنف ، والاجتراء على إيذاء الضعيف ، وانتفاء الرحمة من قلب أبى جهل ، ومن سار سيرته إلى أن تقوم الساعة ، وهو المطابق حال النزول ، ومما يضاعف من الدلالة على العنف ورود الفعل بصيغة المضارع ؛ استحضارا للصورة الماضية ، و فى إحضار الصورة زيادة فى التشنيع ، كما أن فيه دليلا على تكرر ذلك و تجدده ، و لفظ (يدع) من الألفاظ النادرة الوقوع فى الذكر الحكيم ، فلم ترد إلا فى سورة الطور (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) (الطور / ١١ : ١٣) والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وهذه

الآية دالة على أن الجزاء من جنس العمل ، فقد كان المكذبون يدعون اليتيم فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة يدعون إلى نار جهنم دعا ؛ انتصارا لليتيم ؛ و إعلاء لشأن الضعفاء ، فقد جاء مآلهم مطابقا عملهم .

انتهى بنا القول إلى أن ما فى سورة الماعون ، هو أدل التراكيب على بشاعة إهانة اليتيم ، و هو ملائم حال النزول ، مطابق بشاعة أبى جهل و أمثاله ، ولك أن تبصر وراء التعبير باسم الموصول الخاص مبالغة فى إظهار بشاعة مرتكبهم ، فكل من سمع الخطاب من هؤلاء المجرمين توهم أن القرآن يخصه بالخطاب وحده وفيه ما فيه من الترهيب ؛ لذا لم يكن النظم : فأولئك الذين يدعون اليتيم ، مع أن الذى يرتكب مثل هذا عدد غفير عبر الزمان ، إلا أن فى التخصيص ما فيه من تبشيع عملهم .

هذا ، و قد تحدث القرآن الكريم عن المساكين فى ثلاثة وعشرين موضعا أيضا ، ولم يقع لفظ (يحض) ومشتقاته فى القرآن الكريم أيضا إلا فى حديثه عن المسكين ، مع أن كل فعل من أفعال الخير يحض عليه ، ويلام كذلك على عدم الحض عليه ، إلا أن ورود هذا اللفظ فى حديث القرآن عن المسكين خاصة ، يوحى بإلزام الحض على طعام المسكين ، و كأنه لا خير سوى الحض على طعام المسكين ، هذا ، وقد ورد (حض) فى موضعين آخرين قال : ـ تعالى (و لا يحض على طعام المسكين) (الحاقة / ٣٤) (و لا تحاضون على طعام المسكين) (الفجر / ١٨) وقد جاء ما فى سورة الحاقة فى سياق الحديث عمن أوتى كتابه بشماله (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم) (الحاقة / ٣٣) فالآية فى اتجاه واحد مع سورة الماعون ، مع الأخذ فى الاعتبار أن ما فى الماعون حديث فى الدنيا ، و ما فى الحاقة حديث فى الآخرة ، و خطاب الفجر أيضا خطاب جماعة

، و فرق كبير بين خطاب الجماعة وخطاب الفرد ، فالثانى فى إظهار البشاعة أوقع ، و إذا ما كان من قدر على الحث فلم يحث على هذا الخطر العظيم ، فكيف بحال من كان قادرا على الفعل ولم يفعل ، وما أدل التراكيب على شدة بخل أبى جهل و أمثاله ، و انتفاء الرحمة من قلوبهم ، وهو ما صوره الذكر الحكيم أبلغ تصوير حيث بخلوا حتى بالكلام ، وقد " كنى بنفى الحض عن نفى الإطعام ؛ لأن الذى يشح بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح " ([1]) " و التعبير بالطعام دون الإطعام مع احتياجه لتقدير المضاف للإشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له ، وفيه إشارة للنهى عن الامتنان " ([2]) و ما أجمل ما قال الزمخشرى تعليقا على هذا التركيب " فما أشده من كلام ، و ما أخوفه من مقام ، وما أبلغه فى التحذير من المعصية ، و إنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ، ورخاوة عقد اليقين " ([3])

وعيد الساهين عن الصلاة المرائين بها

(فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون) من أصرح مقالات الأئمة فى النظر إلى الآية فى ضوء حال النزول قولهم هنا عن هذه الآيات مدنية ، و الآيات السابقة على الآيات مكية ، محتجين بأن هذه الوصاف للمنافقين ، و لم يظهر النفاق إلا فى المدينة ، و ربما يتأيد قولهم هذا بالنظر إلى حديث القرآن عن الصلاة الذى وقع فيما يقرب من مائة موضع فى الذكر الحكيم ، والذى يهمنا هنا هو حديث القرآن عن التكاسل عن الصلاة و المراءاة

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٦ .

([2]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦٤ ، روح المعانى ١٥ / ٤٧٥ .

([3]) الكشاف ٤ / ٢٨٩ .

بها ، وقد وقعتا صفة للمنافقين فى سورة النساء ، و لا خلاف فى أنها مدنية (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس و لا يذكرون الله إلا قليلا) (النساء / ١٤٢) .

هذا ، و الفاء فى (فويل) إما أن تكون واقعة فى جواب شرط محذوف ، و إما أن تكون سببية ، وهى فى الحالتين تدل على اتصال ما بعدها بما قبلها ، لأن الارتباط بين الشرط و جوابه ترتيبى تسببى ، وكذلك فى فاء السببية ، فى ارتباط اللاحق بها بالسابق عليها ، وهذا الترابط مما يجعلنا نظن أن السورة مكية كلها ، أما كون هذه الأوصاف مختصة بالمنافقين ، وهم لم يظهروا إلا فى المدينة ، فيمكن أن يرد عليه بقول ابن عاشور — بعدما بين معنى الفاء " فيجئ على القول بأن السورة مكية بأجمعها أن يكون المراد بالمصلين عين المراد بالذى يكذب بالدين ، و يدع اليتيم ، و لا يحض على طعام المسكين ، فقوله (للمصلين) إظهار فى مقام الإضمار ، كأنه قيل : فويل له على سهوه عن الصلاة وعلى الرياء ، و على منع الماعون . . . فوصفهم بـ (المصلين) إذن تهكم ، والمراد عدمه ، أى الذين لا يصلون ، أى : ليسوا بمسلمين ، كقوله : — تعالى (قالوا لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين) و قرينة التهكم و صفهم بـ (الذين هم عن صلاتهم ساهون) " ([1]) و أضيف أن الحديث عن ندم المجرمين يوم القيامة بذكر سبب تعذيبهم ، وأنهم لم يكونوا من المصلين نزل فى سورة المدثر ، وهى السورة الرابعة فى ترتيب النزول ، ولم تكن هناك مطالبة بصلاة ، و إنما كانت هناك مطالبة بالدخول فى الدين وترك عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وقد جاء التكذيب بالدين آخر حديثهم تأمل الآيات (إلا أصحاب اليمين فى جنات

([1]) التحرير ٣٠ / ٥٦٧ .

يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين و كنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) (المدثر / ٣٩ : ٤٧) فقد قدموا فى الندم ما هو فرع على ما هو أصل ، وهو أدل على الندم ، و قدموا ما هو مسبب على ما هو سبب ، و لم يقل أحد بأن ورود حديثهم بهذا الطريقة يدل على أنهم فعلوا سائر الخيرات إلا الصلاة و إطعام المسكين ؛ تأسيسا على ما مضى يمكننا أن نقول إن الآيات مكية ، و إنها حال نزولها أبلغ وعيدا وتهديدا وتهكما ، فإذا ما كان الساهون عن الصلاة المراؤون بها على هذا الخطر فما حال من لم يؤمن أصلا ؟ ! ، وقد ذكر الفخر أن الآية تدل على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع ، وتركه لواجبات الشرع ، وهو يدل على صحة قول الشافعى : إن الكفار مخاطبون بفروع الشرع " (١)

و ربما يتأيد ما أقول بالنظر إلى سمات تراكيب السورة فى حديثها عن الساهين المرائين ، من ذلك أنه ليس فى الكتاب العزيز كله تصريح بالويل للمصلين ، وكلمة الويل كلمة عامة فى التهديد والوعيد ، سواء أكانت اسم ذات ، أم اسم معنى بمعنى الهلاك ، أم علما على واد فى جهنم ، تكاثرت الروايات النبوية فى وصفه ، وكلها أوصاف تدل فى مجملها على الرهبة والخوف ، و أنه غاية فى العذاب ، و الويل فى القرآن لا نراه إلا وعيدا للموصوفين بالتكذيب فى الغالب ، فقد وقع لفظ الويل فى أربعين موضعا فى الذكر الحكيم ، جاء وعيدا للكافرين والمشركين فى خمسة مواضع ، و لليهود والنصارى فى أربعة مواضع ، و جاء وعيدا للمكذبين فى أحد عشر موضعا ، وجاء حكاية لندم الكافرين يوم الدين

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٦٦ .

فى خمسة مواضع ، وجاء فى أمور أخرى ، أخلص من هذا إلى أن لفـظ الويـل كأنه من خصائص وعيد المكذبين ، لأن ما ذكر منه لغيرهم يمكن أن ينضم تحت لواء التكذيب ، وعليه أرى تعانقا بين (فويل للمصلين) و (أرأيـت الـذى يكذب بالدين) ، ووعيدهم على السهو عن الصلاة والمراءاة بها من أبلغ ألوان التهكم ، و أدخلها فى التهديد والوعيد ، أضف إلى ذلك أن السورة اختـصت بوصف المصلين هنا بالسهو عن الصلاة ، بل إن لفظة (سـاهون) لم تقـع فى الذكر الحكيم إلا مرة واحدة فى غير هذا الموضع (قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون) (الذاريات / ١١) و هو وصف للمكذبين أيضا ، فالخراصون هم الكذابون ، هذا ، " و فائدة التعبير بالوصف الدلالة على ثبوته لهـم ثبوتـا يوجب أن لا يذكروها من ذات أنفسهم أصلا ، ولذلك كشفه بما بعده " ([١])

أما القول بأن الآيات مدنية ، و أنها نزلت فى المنافقين ، فهذا فى نظرى انتقـال بالآيات من ملاءمتها السبب الخاص إلى ملاءمتها الزمان كله ، فكل ساه مـراء فى كل زمان تلائمه هذه الآيات ، فهذه آراء متعانقـة ، وليـست متعانـدة ، ويكون مراد السورة تبشيع التكذيب بالدين ، فهو يؤدى إلى الإساءة مـع الله ، ومع الناس ؛ لذا قال الآلوسى (فويل) على العطف المذكور للسببية ، وهـذا الوجه يقتضى اتحاد المصلين والمكذبين " ([٢])

هذا ، و حين نبصر مادة (ر اءى) نراها وردت فى خمسة مواضع من الـذكر الحكيم ، جاءت فى موضعين وصفا للمصلين ، و آخرين للمتصدقين ، و آخـر للمجاهدين ، لكننا نرى لوروده هنا خصوصية ، فقد جاء فى سورة النساء (و

([١]) نظم الدرر ٨ / ٥٤٤ .

([٢]) روح المعانى ١٥ / ٤٧٦ .

إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس و لا يذكرون الله إلا قلـــيلا) (النساء / ١٤٢) ، أما الوصف هنا فقد جاء مؤكدا (الذين هم يراؤون) حيث قدم المسند إليه على الخبر الفعلى (هم يراؤون) لتقوية الحكـــم ، و تأكيـــده ، ومن ذلك أيضا وقوع الاسم الموصول (الذين) بدلا ، أو نعتا ، أو عطف بيان ([1]) مما سبقه (الذين هم عن صلاتهم ساهون) الذى موقعــه مماسبقـــــه (للمصلين) مثل هذا الموقع ، وفى كل ذلك زيادة تأكيد على تبشيع المـــراءاة ؛ لأنه تنبنى على الاسم الموصول صلة ، هى محط التشنيع ، تخيل مثلا لو أن النظم : فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون يراؤون ، وقد ذكر الكرمانى أن ذكر الاسم الموصول ثانية أمر تصحيحى حيث قال : " قوله : (الـــذين هـــم يراؤون) كرر و لم يقتصر على مرة واحدة ، لا متناع عطف الفعل على الاسم " ([2]) المهم أن ذكر الموصول ، و إيراد جملة الصلة اسمية ، وتقديم المسند إليـــه على خبره الفعلى يفيد التأكيد على أنهم ضيعوها حسا ومعنى ، وكـــل وعيـــد ينطوى عليه التركيب للساهين المرائين له مردود مـــضاعف علـــى الكـــافرين المشركين فى زيادة الترهيب ، و إعلاء نبرة التهديد .

([1]) الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٢ .

([2]) البرهان فى توجيه متشابه القرآن ٣٠٦ .

آية الماعون ولطائفها

(ويمنعون الماعون) اختصت السورة الكريمة على قصرها بلفظ (الماعون) و دلالة هذا اللفظ دلالة ثرية واسعة تلائم اتساع دلالة (الدين) في مفتتح السورة الكريمة ، ومن معاني الماعون : الماء ، والمطر ، و كل ما يستعار للمنفعة عند الحاجة ، من فأس ، وقدر ، و إناء ، اسم جامع لمنافع البيت ، أو أنه العارية ، أو أنه منع للحق ، أو أنه الطاعة و الانقياد ، وجملة القول أن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة و المسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق ؛ لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض " ([1])

وهذا التركيب أبلغ حديث رأيته عن البخل ، وهو ملائم حال النزول ، فأقبح ما يوصف به العربي البخل ، فما بالنا بوصفهم بأشد البخل ، وهذا التركيب يسير في اتجاه واحد مع التراكيب السابقة التي تشكل الحلقة الأثرى في التعبير عن المعاني المذكورة في السورة ، ولها ما يقاربها في المواطن الأخر ، وقد جاءت التراكيب بالمضارع ؛ دلالة على تكرر تلك القبائح ، التي يستبشع فعلها من مرة واحدة ، فما أبشع حال من يكررها (يكذب ـ يدع ـ لا يحض ـ يراؤون ـ يمنعون) و ما أجمل ما ذكر الفخر ـ رحمه الله ـ في مناسبة هذه الآية لما قبلها حيث قال : " كأنه ـ تعالى ـ يقول : الصلاة لي ، والماعون للخلق ، فما يجب جعله لي يعرضونه على الخلق ، و ما هو حق الخلق يسترونه

([1]) ينظر جامع البيان ٣٠ / ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥١ ، ٥٥٦ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٥٥٧ ، ٧٥٥٩٠ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٦٩ ، التفسير البياني ٢ / ١٩٠ د/ عائشة عبد الرحمن .

عنهم ، فكأنه لا يعامل الخلق و الرب إلا على العكس " ([1]) فكما رأينا تعاونت تراكيب السورة على فضح ووعيد حال من نزلت فيهم السورة

خلو السورة من الأسماء الحسنى و ملاءمته المقام

الذى أبصره أن خلو السورة من الأسماء الحسنى ملائما المقام أحسن ما تكون الملاءمة ؛ لأن السورة خطاب لأشد الناس قساوة ، و أجمعهم لأفظع القبائح و أبشعها ، و هم أحقر من أن يذكر اسم من أسماء الله الحسنى فى سياق الحديث عنهم أو معهم ، لأنه خطاب مغاضب لمن لا يعرف قلبه رحمة ، و لا لينا ، فهم (يدعون اليتيم) و لا يكتفون بمنع الخير عنه ، و إنما يتجاوزون ذلك إلى تعنيفه و إهانته أشد ما تكون الإهانة ، وبلغوا فى البخل أبعد مدى فهم لا يقفون عند منع الخير عن المسكين ، بل يبخلون حتى بالكلام ، بل بلغوا أسوا الدركات فى البخل حينما منعوا الماعون ، مع أنه عارية تسترد ، فقد نالوا من القبائح و الفظائع أحط الدركات و أحقرها ،فهم أحقر من أن يذكر اسم الله فى سياق الحديث عنهم ، و لو على سبيل التهديد ، فلا يليق أن يذكر فى تضاعيف الحديث عنهم أسماء جلال ، و لا أسماء جمال ، كما أن فى خلو السورة من الأسماء الحسنى إلماعا إلى علو نبرة التهديد ، و إعلاء شأن الوعيد .

تراكيب السورة تلائم الزمان كله

ما من ريب فى أن تراكيب السورة تلائم الزمان كله ، وقد أشرنا إلى ذلك فى تضاعيف حديثنا عن تراكيب السورة فى ضوء حال النزول ، من ذلك مثلا ما ذكره العلماء من أن المخاطب بأرأيت هو كل عاقل ، كما أن دع اليتيم و عدم

([1]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٧٠ .

الحض على طعام المسكين ، و السهو عن الصلاة والمراءاة فيه كل هـــذه أمـــور تتكرر عبر الزمان ، كما أن التكذيب بالدين يتجدد عند الناس بالـــصور الـــتى تلائم زمانهم ، و من المضحكات أن ترى فى زماننا مسلما علمانيا ، أو مـــسلما ماركسيا ، وهو من صور التكذيب بالدين التى تستحدث فى كل زمان ، كذلك الفصل بين الاعتقاد والعمل أصبح سمت كثيرين من المسلمين فى زماننا ، وقـــد ألمع القدماء إلى هذا حينما حددوا مقصد السورة الكريمة ، بقولهم " مقـــصودها التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث ، فإنه يجرئ المكذب على مساوئ الأخلاق ، ومنكرات الأعمال ، حتى تكون الاســـتهانة بالعظـــائم خلقا له ، فيصير ممن ليس له خلاق " ([1]) و قد ألمعنا إلى مقالات الأئمـــة الـــتى تشير إلى أن المقصود باسم الموصول الجنس ، وإلى الأقوال الأخرى التى تـــشير إلى أن المقصود بالاسم الموصول أبو جهل أو غيره ، وقلنا : لا تعاند بين الأقوال ، و أن الذين قالوا بالعهدية كانت أعينهم على سبب النزول ، و أن الذين قالوا بالجنسية كانت أعينهم على الزمان كله .

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥٤١ .

الفصل الرابع
سور الكافرون

موقع السورة فى الترول ودلالته

السورة الكريمة مكية ، وهى الثامنة عشرة فى الترول على هذا الترتيب (العلــق ــ القلم ــ المزمل ــ المدثر ــ الفاتحة ــ المسد ــ التكوير ــ الأعلى ــ الليل ــ الفجر ــ الضحى ــ الشرح ــ العصر ــ العاديات ــ الكوثر ــ التكــاثر ــ الماعون ــ الكافرون) والذى نلحظه أن السور نزلت بعد سورة خلت مــن أسماء الله الحسنى (الماعون) ومن قبلها سورة التكاثر غير أن الأخرى خلت من ذكر اسم الله صراحة ، بيد أنه جاء محذوفا ، والسورتان فيهما وعيــد شــديد وتهديد (كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمــون) وافتتحــت المــاعون بالحديث عن المكذبين بالدين ، و كأن الذكر الحكيم كان فى هذا الوقت يتوجه بالخطاب لقوم بأعيانهم ، وتغلب عليه لغة التهديد والوعيد ؛ تناسبا مــع المقــام حينئذ ، ومن البديع أيضا أن سورة الفيل أعقبت هذه السورة فى الــترول ، وفى سورة الفيل ؛ إحالة على حادثة لم تغب عن أحد أبدا ، وفيها من دلائل قــدرة الله وقهره أعدائه ما فيها ، وكأنها وقعت عقبها فى الترول ؛ زيادة فى التهديــد ، و تأكيدا للوعيد لمن كان منهم البراء ، وهذه المرحلة من الدعوة كانت أشد ما تكون حاجة لتأييده ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنين معه ، و إرهاب أعدائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وذلك يكون أثبت لجنانه ، و أسكن لروع من حوله

من المؤمنين ، لأنه من الممكن أن تكون السورة قد نزلت قبل الهجرة إلى الحبشة ، وهى مرحلة حرجة جدا .

موقع السورة فى الكتاب العزيز ودلالته

السورة فى المصحف الشريف هى السورة التاسعة بعد المائة ، وقد وقعت بعـــد سورة الكوثر ، وقبل سورة النصر ، وسورة الكوثر ختمت بقوله : ـــ تعالى ـــ (إن شانئك هو الأبتر) وجاءت سورة الكافرون بعدها مؤذية شانئيه ـــ صـــلى الله عليه وسلم ـــ أشد الإيذاء ، وجاءت سورة النصر بعد دالة على نـــصر الله أولياءه ، ودحر شانئيه ، وقد ذهب علماء المناسبات إلى أبعد من ذلك ، حيـــث نظروا إلى السورة فى سياقها القرآنى كله ، وقد كانوا على وعى تام بأن فاتحـــة الكتاب تجمع معانى القرآن الحكيم كله ؛ أخذا من تسميته ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ فاتحة الكتاب : أم القرآن ، تأمل قول ابن الزبير : " ولما اقتضى ذكـــر الفريقين المتردد ذكرهما فى الكتاب العزيز من أوله إلى آخـــره علـــى اخـــتلاف أحوال كل فريق ، وشتى درجاهم ، و أعنى بالفريقين من أشير إليهما فى قولـــه : ـــ سبحانه (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فهذا طريق أحد الفريقين ، وقوله (غير المغضوب عليهم) إشارة إلى من كان فى الطريق الآخر من حال أولئك الفريق ، إذ ليس إلا طريـــق السلامة أوطريق الهلاك (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) (الـــشورى / ٧) (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) (التغابن / ٢) والسالكون طريق السلام علـــى درجات ، فأعلى درجاهم مقامات الرسل و الأنبياء ـــ عليه السلام ـــ ثم يليهم أتباعهم من صالحى العباد وعلمائهم العاملين وعبّادهم ، و أهل الخصوص منهم والقرب ، ثم أحوال من تمسك بهم مختلفة ، و إن جمعهم جامع واحد ، وهو قوله

: (فريق فى الجنة) و أما أهل التنكب عن هذا الطريق ، وهم الهالكون فعلى طبقات أيضا ، ويضم جميعهم طريق واحدة ، فكيفما تشعبت الطرق فإلى هاتين ترجع ، وباختلاف سبل الجمع عرّفت آى الكتاب ، وفصلت ذلك كله تفصيلا لا يبقى معه ارتياب لمن وفق ، فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به ، وتداولت بيانه الآى من لدن قوله : ـــ بعد أم القرآن (هدى للمتقين) (البقرة / ٢) إلى قوله : (إن شانئك هو الأبتر) (الكوثر/ ٣) أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل ، فقال : (قل يأيها الكافرون) (الكافرون/١) "(١)

لله در هذا الشيخ ، فقد عقد موقع السورة بعنوانها فى فاتحة الكتاب ، ثم تتبع مسيرة هذا العنوان فى القرآن الحكيم ؛ ليصل إلى موقع سورة الكافرون ، فيبصرنا أن السورة تلخيص موجز لكل ما فى القرآن من حال أوليائه ، وحال أعدائه ، إلى أن قال الشيخ : " (لكم دينكم ولى دين) فتبارأ الفريقان ، وارتفع الإشكال ، واستمر كل على طريقه ، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (فاطر / ٨) (إن عليك إلا البلاغ) (الشورى / ٤٨) فتأمل موقع هذه السورة ، و أنها الخاتمة لما قصد فى الكتاب يلح لك وجه تأخيرها" (٢) حيث جاءت التراكيب أوجز ما يكون ، و أكثر ما يكون معانى ، و أثرى ما يكون عطاء بما لا نظير له فى الذكر الحكيم فى البراء من الكافرين ، وقد وقعت السورة فى نهاية المطاف ، ووردت تراكيبها بسمات تلائم هذا الموقع ؛ لذا قال الشيخ عبد المتعال الصعيدى : " يقصد من هذه السورة متاركة الكفار

(١) البرهان ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢) البرهان ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

بعد أن ذهبت السورة السابقة فى دعوتهم كل مذهب ، فهى كالختام للسور التى ذكرت قبلها ، وهذا هو وجه المناسبة فى ذكرها بعدها " ([1])

ومن وجوه المناسبة أيضا ما ذكره الآلوسى حيث قال : " وفيها إعلان ما فهم مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة له ــ عز وجل " ([2]) يقصد قوله : ــ تعالى ــ (فصل لربك وانحر) (الكوثر / ٢) وكأن سورة الكافرون جاءت تطبيقا لذلك (لا أعبد ما تعبدون) ، ومن وجوه المناسبة أيضا ما ذكره البقاعى من أن " مقصودها : إثبات مقصود الكوثر بالدليل الشهودى على منزلها كامل العلم ، شامل القدرة ؛ لأنه المنفرد بالوحدانية " ([3]) ومقصود الكوثر " المنحة بكل خير يمكن أن يكون " ([4]) أى أن هذا العطاء الكثير لا يمكن أن يكون إلا ممن تفرد بالعبودية و الألوهية .

([1]) النظم الفنى ٣٦٩ .

([2]) روح المعانى ١٥ / ٤٨٤ .

([3]) نظم الدرر ٨ / ٥٥٣ .

([4]) السابق ٥٤٧ .

حال النزول ولطائف المطابقة

سبق أن أسلفنا أن السورة من الممكن أن تكون قد نزلت قبل الهجـــرة إلى الحبشة ، و هى فترة حرجة جدا ، و قد جاء فى أسباب النزول ما يكشف لنـــا عن المقام فيما رواه الواحدى ، وابن إسحق أن رسول الله ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ كان يطوف بالكعبة ، فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد ، والوليد بن المغيرة ، و أمية بن خلف ، والعاص بن وائـــل ـــ وكـــانوا ذوى أســـنان فى أقوامهم ، فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد سنة ، وتعبد ما نعبـــد ســـنة ، فنشترك نحن و أنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخـــذنا بحظنا منه ، و إن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله فيهم (قـــل يأيهـــا الكـــافرون . . .) السورة كلها فغدا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى المسجد الحـــرام ، وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك " [1] وفى رواية أنهـــم قالوا : " يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد . . . " [2] ومما نلحظـــه أن التراكيب جاءت مطابقة لمقالتهم ، كاشفة عن مرادهم مـــضادة لـــه ، لأن تكرار لفظ طلب العبادة فى كلامهم وقع أربع مرات ، و قد طابقته الـــسورة إذ جاءت بأربع جمل تثبت عكس مرادهم ، وتدور آى السورة من أولها إلى آخرها

---

[1] التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٨٠ عن أسباب النزول للواحدى ، والسيرة النبوية لابن إسحق ، وينظر جامع البيان للطبرى ٣٠ / ٢١٤ .

[2] الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧١١٥ ، روح المعانى ١٥ / ٤٨٥ .

حول البراء من معبوديهم ، ماضيا ، وحالا ، ومستقبلا . وغير ذلك مما يكشف عنه التحليل بحول الله ـــ تعالى .

التصور الجملى للسورة الكريمة

حين نبصر السورة الكريمة نراها كلها عبارة عن شقين أمر (قـــل) ، والـــشق الآخر مقول ، وهو السورة كلها من أول قوله : ـــ تعالى " قل يأيها الكافرون) إلى آخر السورة الكريمة وكلها تدور حول معنى واحد ، هو عدم عبادة رســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ معبودهم ، ماضيا ، وحالا ، ومستقبلا ، وعـــدم عبادة الكافرين الله ـــ سبحانه ـــ ماضيا ، وحالا ، ومستقبلا ؛ تيئيسا لهم مـــن اتباع الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إياهم ؛ وتيئيسا لهم من أن يؤمنوا بالله .

تراكيب السورة فى ضوء حال النزول .

سبق أن أسلفنا أن السورة الكريمة كلها عبارة عن أمر بالقول (قل) ومقول ، وهو كل تراكيب السورة الكريمة ، فكأن السورة كلها جملة كـــبيرة ، وهـــذه الجملة مكونة من فعل وفاعل و مفعول به ، الفعل : قل ، والفاعـــل : ضـــمير مستتر ، والمفعول به : بقية السورة الكريمة ، وهذا المفعول به مكون من ســـت جمل (يأيها الكافرون ـــ لا أعبد ما تعبدون ـــ و لا أنتم عابدون ما أعبد ـــ و لا أنا عابد ما عبدتم ـــ و لا أنتم عابدون ما أعبد ـــ لكم دينكم ولى دين)
وسنتناولها جزءا جزءا بحول الله .

حول الافتتاح بالأمر و أسراره

ذكر ابن عاشور أن السر وراء الافتتاح بـ (قل) هو " الاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه ، و إلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه " ([1]) وقد ذكر الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ ثلاثا و أربعين فائدة وراء الأمر (قل) لا يمكننا أن نقبلها كلها ، و إنما نصطفى منها ما يناسب السياق و يلائمه ، فوق أن كثيرا منها يدخل بعضها فى بعض : ـ

أولا : أنه عبر بالأمر (قل) حتى يظهر أمام الكفار أنه مأمور بهذا الكلام ، لا أنه من عند نفسه تمشيا مع ما وصف به فى القرآن من الرفق واللين فى مخاطبة الخصوم ، و أن ذلك هو الأنسب مع القرابة ووحدة النسب ، وهما يمنعان من إظهار الخشونة .

ثانيا : أنه جاء كذلك ؛ ليعلم الكفار أنه من عند الله ، لا من عند رسوله ، وفيه ترهيب وزجر لهم ، كما أن فيه تعظيما للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الأمر هنا كالتأكيد فى إيجاب تبليغ هذا الوحى ([2]) وما ذكرته وجوه متداخلة ، وليس وجها واحدا مما ذكره الفخر ـ رحمه الله ـ وما لم أذكره لا حاجة لنا به فى موضوعنا .

وما يفيده الأمر هنا من التأكيد والترهيب والاهتمام بعده يناسب حال النزول من التفاوض معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عبادة أصنامهم ، وعبادتهم لله ، والأمر فى هذا الوقت بمواجهتهم بالتبرؤ مما يقولون ترهيب لهم لما يدل عليه

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨٠ .

([2]) ينظر مفاتيح الغيب ١٦ / ٧٠٤ : ٧١٥ بتصرف .

من موهم على الكفر ، وعدم هدايتهم ، وشئ آخر ذكره الفخر ــ رحمه الله ــ فقد طرح سؤالا : لم قال : ــ تعالى ــ فى سورة التحريم (يأيها الذين كفروا . . .) (التحريم / ٧) ولم يذكر : قل ، وهاهنا ذكر : قــل ، وذكــره باســم الفاعل ؟ والجواب : الآية المذكورة فى سورة التحريم ، إنما تقال لهم يوم القيامة ، وثمة لا يكون الرسول رسولا إليهم ، فأزال الواســطة ، وفى ذلــك الوقــت يكونون مطيعين لا كافرين ، فلذلك ذكره بلفظ الماضى ، و أما هاهنــا فهــم كانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول ــ صلى الله عليه وســلم ــ رســولا إليهم ، فلا جرم ، قال : (قل يأيها الكافرون) ([1]) وفى هــذا مطابقــة لحــال التزول .

نداؤهم بالكفر ، وما وراءه من الأسرار

" ابتدئ خطابهم بالنداء لإبلاغهم ، لأن النداء يستدعى إقبال أذهانهم على مــا سيلقى عليهم " ([2]) فإذا ألقى إليهم بعد ذلك ما يكرهونه ، كان ذلك أوجــع لهم ، و أرهب لهم ؛ لأنه يدل على عدم خوفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولــو استرجعنا حال التزول لأحسسنا هذا الإحساس ، وقد كان فى نظرهم مستضعفا ، فإذا ما كان خطاب المستضعف بهذه القوة ، تحير المخاطبون فى شأنه ، و أيقنوا أن وراء خطابه مساندة قوية تدعوه إلى عدم الاكتراث بهم ، فكان ذلــك أردع لهم ، و أزجر . ثم إنه وصفهم بهذا الوصف (الكافرون) وقد ذكر المفــسرون

([1]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٦ .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨١ .

أن اللام للعهد ([1]) و قولهم هذا ناظر إلى سبب النزول ، تأمل قول الشيخ زادة " الألف واللام فى قوله : ــ تعالى ــ (الكافرون) ، و إن كانت للجنس بحسب الظاهر حيث وقع الكافرون صفة لأى ، إلا أن ما فيه من التعريف للإشارة إلى المعهود بقرينة سبب النزول " ([2])

ووراء وصفهم بهذا الوصف (الكافرون) لطائف ذكرها أهل العلم : ــ

أولها : ما ذكره الفخر ــ رحمه الله ــ فى وجه إيثار ذكر هذا الوصف على وصفهم بــ (الجاهلين) فى هذه السورة ، وقد أجاب بأن ذكرهم بالكافرين أنسب للسورة ، حيث قال : " لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم ، فلا بد و أن تكون المبالغة هاهنا أشد ، وليس فى الدنيا لفظ أشنع ، و لا أبشع من لفظ الكافر ، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقا أو مقيدا ، أما لفظ الجهل عند التقييد قد لا يذم ، كقوله ــ عليه السلام ــ فى علم الأنساب : علم لا ينفع وجهل لا يضر " ([3]) وذلك هو مقتضى حالهم ، ورد مطلبهم فى استنزاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى عبادة أصنامهم ، برميهم بأشنع لفظ ؛ تسفيها لما قالوا .

([1]) الكشاف ٤ / ٢٩٢ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧١١٥ ، ٧١١٦ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٠ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٩ ، نظم الدرر ٨ / ٥٥٤ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٦ ، ، فتح القدير ٥ / ٥٠٦ ، حاشية الشهاب ٨ / ٤٠٤ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٦ ، روح المعانى ١٥ / ٤٨٥ .

([2]) حاشية محيى الدين شيخ زادة على البيضاوى ٤ / ٧٠٢ .

([3]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٦ .

ثانيها : أن فى مجابهتهم بالكافرين دون المشركين ــ مع أنهم عبدة أصنام ، و الأكثر التعبير عنهم بذلك ــ لأن ما ذكر أنكى لهم فيكون أبلغ فى قطع رجائهم الفارغ " ([1])

ثالثها : أن فى وصفهم بالكافرين تحقيرا لهم ، وتأييدا لوجه التبرؤ منهم ؛ و إيذانا بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون ، مما يثير غضبهم ، لأن الله كفاه إياهم ، وعصمه من أذاهم " ([2]) و لا أغضب لهم من الرضى بالكفر ، وكل ذلك مناسب حال النزول ، وفيه تقوية له ــ صلى الله عليه وسلم ــ و إرهاب لعدوه .

رابعها : أن فى التعبير بالوصف دون الفعل دلالة على رسوخهم فى الكفر وثباتهم عليه ، كما أن فيه مطابقة للواقع ، وفى التعبير بجمع القلة (الكافرون) إشارة إلى ذلتهم ، وضعف شوكتهم ، كما أن فيه إشارة إلى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا فى حياته ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما أن فيه إشارة إلى حقارة الكافر وذلته ، و إن كان كثيرا " ([3])

ونخلص من هذا إلى أنه ــ سبحانه ــ اصطفى من الألفاظ أبلغها ؛ مطابقة للحال ، و أعلاها تأييدا لنبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ و إرهابا لعدوه ؛ مناصرة لأوليائه ، ومناوأة لأعدائه ، والدعوة حال نزول السورة كانت أحوج ما تكون إلى هذا التأييد ، هذا ، ومما يجب التنويه به أنه لم يجر خطاب فى الذكر

([1]) روح المعانى ١٥ / ٤٨٦ .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨١ .

([3]) نظم الدرر ٨ / ٥٥٤ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٤٠٤ .

الحكيم كله على هذه الطريقة ــ على كثرة حديث الذكر الحكيم عنهم ــ وبوسعنا أن نقول : إن هذا الخطاب هو أقذع خطاب فى الذكر الحكيم للكافرين .

التبرؤ من الكافرين وما عرضوه

(لا أعبد ما تعبدون ، و لا أنتم عابدون ما أعبد ، و لاأنا عابد ما عبدتم ، و لا أنتم عابدون ما أعبد) هذه أربع جمل لم أجد لها نظيرا فى الذكر الحكيم ، نعم نجد فى الذكر الحكيم نهيا له ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن عبادة ما يعبدون ، أو نفيا لعبادة ما يعبدون ، لكن البناء التركيبى يختلف عما هنا ، ولم يرد على الإطلاق فى الذكر الحكيم إخبار بأنهم لن يعبدوا الله ، خذ من ذلك مثلا قوله : ــ تعالى ــ (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) (الأنعام / ٥٦) وقوله : ــ (قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم و أمرت أن أكون من المؤمنين) (يونس / ١٠٤) وقوله : ــ تعالى ــ (قل إنما أمرت أن أعبد الله و لا أشرك به إليه أدعو و إليه متاب) (الرعد / ٣٦) وقوله : ــ تعالى ــ (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) (الزمر / ٦٤) وحين تبصر هذه التراكيب لا تجد فيها إخبارا عن عدم عبادة الكافرين معبوده ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما أننا نجد فى التراكيب السابقة ؛ نفيا أو نهيا لعبادته آلهتهم على وجه واحد ، وليس على كل وجه كما ورد فى هذه السورة الكريمة .

هذا ، وحين نستظهر سبب النزول نرى أن التراكيب جاءت على أحسن ما تكون المطابقة ، و أعظم وفاء بحق المقام ، تأمل قول الكافرين : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد . . . وكيف تكرر لفظ طلب العبادة ، وكيف بدأوا بذكر عبادتهم معبوده أولا استنزالا له ، ثم تثنيتهم بعبادته معبودهم ؛ لذا جاء الذكر الحكيم بنفى كل ذلك ، ماضيا ، وحاضرا ، ومستقبلا ، عن نفسه ، وعنهم كذلك ، وذلك أنكى للخصم ، و أشد تيئيسا لهم من مطمحهم الذى دعاهم إلى مخاطبته ــ على كبريائهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا الأسلوب الذى يظهر ليونتهم المتزايدة ، وذلتهم الواضحة ، وضعفهم الفاضح نحو قوة حجته ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع أن ذلك كان فى مقتبل الدعوة ، ومهد الرسالة الخاتمة .

ويمكننا أن نوجز أقوال الأئمة فى هذه التراكيب فيما يلى : ــ

العلماء من الآيات الكريمات على فريقين فريق يقول بالتكرار ، وفريق آخر ينكره ، ولكل حجته .

أولا : رأى الجمهور أنه لا تكرار فى الآيات ، و إنما لكل آية معنى مغاير لأختها ، ووجهوا الآيات على النهج التالى : ــ

١ ــ أن (لا أعبد ما تعبدون) أريد بها نفى العبادة فيما يستقبل ، وحجتهم فى ذلك أن (لا) لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال ، كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال ، و أن (لن) تأكيد فيما تنفيه (لا) ومذهب الخليل أن (لن) أصلها (لا أن) والمعنى على ذلك : لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ، و لا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهى ، و أما قوله : (و لا أنا عابد ما عبدتم) فنفى للماضى ،

والمعنى : وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم ، يعنى : لم تعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية ، فكيف ترجى منى فى الإسلام ؟ فنفى الفعل بـ (لا) نفى للعبادة فى المستقبل ، ونفى الاسمية نفى للعبادة فى الماضى ، فيخرج بذلك من التكرار " [1]

٢ ـ أن الجملتين الأوليين لنفى العبادة فى الحال ، والجملتين الأخريين لنفى العبادة فى الاستقبال ، وهو قول ثعلب والزجاج [2] وهو توجيه مقابل للتوجيه الأول ، فوق أنه يسقط الزمن الماضى .

٣ ـ قيل : الأوليان لنفى الاعتبار الذى ذكره الكافرون ، و الأخريان للنفى على العموم ، أى : لا أعبد ما تعبدون ؛ رجاء أن تعبدوا الله ـ تعالى ـ و لا أنتم عابدون ؛ رجاء أن أعبد أصنامكم ، ثم قيل : و لا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض بوجه من الوجوه ، وكذا أنتم لا تعبدون الله ـ تعالى ـ لغرض من الأغراض " [3]

٤ ـ أنه يحتمل أن يكون المراد من قوله : ـ تعالى (لا أعبد ما تعبدون) نفى لعبادة الأصنام ، ومن قوله : ـ تعالى ـ (و لا أنتم عابدون ما أعبد) نفى عبادة الله ـ تعالى ـ من غير تعرض لشئ آخر "[4]

---

[1] ينظر الكشاف ٤ / ٢٩٢٩، ٢٩٣ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٧ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٩ ، ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل للغرناطى ٢ / ١١٥٠ : ١١٥٤ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٦ ، نظم الدرر ٨ / ٥٥٥ ، ٥٥٦ الشيخ زادة على البيضاوى ٤ / ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨١ : ٥٨٣

[2] الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣١٨ ، ٧٣١٩ ، مسائل الرازى ٥٥٣ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٤٠٥ .

[3] روح المعانى ١٥ / ٤٨٧ .

[4] السابق ١٥ / ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

ثانيا : المذهب الثانى : أن الآيات جاءت على لاحب التكرار ، و أصحاب هذا المذهب حجتهم أقوى من أصحاب المذهب الأول ، وهو أقرب إلى روح العربية ، وقد عولوا على سبب النزول فى احتجاجهم ، وعلى ما هو معروف من لسان العرب ، ودأب القرآن الكريم ، ودأب الرسول ــ صلى الله عليــه وســلم ــ وقد وجهوا الآيات على النحو التالى : ــ

١ ــ أن الثالثة (و لا أنا عابد ما عبدتم) توكيد للأولى (لا أعبد ما تعبدون) والرابعة (و لا أنتم عابدون ما أعبد ما أعبد) توكيد للثانية (و لا أنتم عابدون ما أعبد) والمقصد من هذا التكرار التأكيد و الإفهام ، وهو مقصود هنا لقطــع أطماع الكافرين ، وتحقيق أنهم باقون على الكفر أبدا ، وحجتهم فى ذلــك أن التكرار شائع مستفيض فى كلام العرب من ذلك قول الشاعر : ــ

نعق الغراب ببين ليلى غدوة * كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وقد جاء فى القرآن (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) (التكــاثر / ٣، ٤) وتكرر قوله : ــ تعالى ــ (ويل يومئذ للمكذبين) فى سورة المرسلات أكثر من مرة ، وقوله : ــ تعالى ــ (فبأى آلاء ربكما تكــذبان) فى ســورة الرحمن أكثر من مرة أيضا ، و أثر عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنــه كان إذا أراد التأكيد على أمر كرره ثلاثا ([1])

وهو كلام له مستنده من الاستعمال اللغوى ، ولا يعكره ما قيــل مــن أن تأكيد الجمل لا يكون مع العاطف إلا بثم ، و كأن القائل بذاك قاس الواو على ثم ، وردّ هذا بأن الظاهر أن من قال بالتأكيد جعل الجملة الرابعة معطوفة علــى

([1]) ينظر جامع البيان للطبرى ٣٠ / ٢١٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧١١٦ ، ٧١١٧ ، مسائل الرازى ٥٥٣ ، فتح القدير ٥ / ٥٠٧ ، روح المعانى ١٥ / ٤٨٦ .

الثالثة ، وجعل المجموع معطوفا على مجموع الجملتين الأوليين ، فهناك متعاطفان يؤكد ثانيهما أولهما ، ولمغايرة الثانى للأول بما فيه من الاستمرار عطف عليه بالواو ، وعليه فلا يرد ما ذكر ، ويتضمن ذلك معنى تأكيد الجزء الأول من الثانى للجزء الأول من الأول ، وتأكيد الجزء الثانى من الثانى للجزء الثانى من الأول " ([1])

٢ ــ ذهب الكرمانى إلى أن هذا التكرار اختصار ، وهو إعجاز لأن الله نفى عن نبيه عبادة الأصنام فى الماضى والحال والاستقبال ونفى الكفار المذكورين عبادة الله فى الأزمنة الثلاثة أيضا ، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات ، فذكر لفظ الحال لأن الحال هو الزمان الموجود ، واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأزمنة الثلاثة ، واقتصر من الماضى على المسند إليهم ، فقال : (و لا أنا عابد ما عبدتم) و لأن اسم الفاعل بمعنى الماضى فعمل على مذهب الكوفيين ، واقتصر من المستقبل على تكرار هذه اللفظة مع المسند إليه فقال : (و لا أنتم عابدون) و كأن أسماء الفاعلين بمعنى المستقبل "([2]) وهو وجه طيب .

٣ ــ وذكر الفخر ــ رحمه الله ــ أن التكرير يفيد التوكيد ، وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير أحسن ، و لا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع ، لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا المعنى مرارا . . . و أنهم ذكروا تلك الكلمة مرتين " تعبد آلهتنا شهرا ، ونعبد إلهك شهرا ، وتعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة " فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم ، وهو ضرب من التهكم ، فإن من كرر الكلمة

([1]) روح المعانى ١٥ / ٤٨٦ .

([2]) البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ٣٠٧ .

الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار ؛ اســتخفافا به ، واستحقارا له " ([1])وقد عول فى هذا على سبب النزول ، وبين أن الآيــات جاءت على أدق ما يكون من مطابقة الكلام مقتضى الحال .

هذا ، وقد رد الشوكانى على منكرى التكرار فى الآيات ، و أبطل ما ذهبــوا إليه من توجيه الآيات ، وعقب على توجيهاتهم قائلا " وكل هــذا فيــه مــن التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف ، فإن جعل قولــه (لا أعبــد مــا تعبدون) للاستقبال ، و إن كان صحيحا على مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتم جعل قوله (و لا أنتم عابدون ما أعبد) للاستقبال ، لأن الجملة اسمية تفيد الدوام والثبات فى كل الأوقات ، فدخول النفى عليها يرفع ما دلت عليه مــن الدوام والثبات فى كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحا للــزم مثله فى قوله (و لا أنا عابد ما عبدتم) وفى قوله : (و لا أنتم عابدون ما أعبــد) فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس ، لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التى هى المبتدأ فى كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيمــا بعده منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ لا فى كل واحد منها ، فكيف يــصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى الحال والاستقبال مختلفة . . . و أما قــول من قال : إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو إقرار منه بالتكرار لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكــون مــن بــاب التحكم الذى لا يدل عليه دليل " ([2])

([1]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٩ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٧ .

([2]) فتح القدير ٥ / ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

وكلامه مقنع ، وهو أدنى إلى روح العربية ، و ألصق بالحال ، و أعلق بالمقـــام ، وقد اضطربت أقوال القدماء فى تحديد مفهوم التكرار ، لدرجة أن بعضهم ذهب إلى أن ما فى المرسلات والرحمن ليس بتكرار ، والحق الأزهر أن للتكرار مقامات يحسن فيها ـــ وهذا منها بلا شك ـــ و أنه من الوسائل البيانيـــة الدقيقـــة ، ولا يقدر على إيراده فى موارده إلا الناهون من البلغاء ([1])

([1]) ينظر هذه القضية باستفاضة فى كتاب أستاذنا الدكتور إبراهيم الخولى التكرار بلاغة ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٩٣ من ص ٨٠ : ١٠٠ خاصة .

ويمكننا أن نقف موقفا وسطا ناتجا عن إبصار الآيات ، فنقول بـــالتكرار فى الآيتين (٣ ، ٥) لأن التركيب فيهما واحد ، فيصدق عليهما مفهوم التكرار (و لا أنتم عابدون ما أعبد) ويكون المراد فيهما الحال و الاستقبال بقرينة المقـــام ، لأن عدم عبادة الكافرين الله فى الماضى لم تكن محل شك ليؤكد نفيهـــا ، وفى التكرار تأكيد على بشارة السوء ، و إلقاء بهم فى وجههم مجابهة لهم بما يكرهونه ؛ إظهارا لقوة الإسلام ، وعزا لآله ، وما من شك فى أن إخراج هاتين الآيـــتين عن التكرار تكلف لا مؤيد له من استعمال لغوى ، ولا نهـــج أســـلوبى ، و لا مقام.

أما الآيتان (٢ ، ٤) (لا أعبد ما تعبدون) (و لا أنا عابد ما عبـــدتم) فـــلا نستطيع أن نقول بالتكرار فيهما ، لأن البناء التركيبى مختلف ، فالجملـــة الأولى فعلية ، والمفعول به فيها مكون من جملة الفعل فيها مضارع ، والثانية جملة اسمية ، والمفعول به فيها جملة فعلها ماض ، واختلاف التركيـــب حتمـــا يـــؤدى إلى اختلاف المعنى ، ويمكننا أن نسلك إلى بيان اختلاف المعنى سبيلا آخـــر ، مـــن المفعول به ، فقوله : (ما تعبدون) يدل على معبودهم فى الحال و الاســـتقبال ، وقوله : (ما عبدتم) يدل على معبوداتهم الماضية ، وربما تكـــون هـــذه قرينـــة سياقية على نفى اتباعهم فى عبادة معبوداتهم فى الحال والاستقبال ، ويكون السر وراء البدء بذلك المعاجلة " بالبراءة من جهته لأنها الأهم " ([1]) وبتركيب يـــدل على الحال و الاستقبال لأنهما زمنا المنازعة ، وهذا هو المفهوم من استنزالهم إياه

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥٥٥ .

ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فالمعقول أن يكون زمن الاستزال هـــو الحـــال و الاستقبال لا الماضى ، فوق أن الجملة الفعلية تدل على التجـــدد والحـــدوث ، ونفيها نفى لذلك ، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والـــدوام ونفيهـــا نفـــى لذلك.

إشكالية التعبير بـــ (ما) فى قوله : (ما أعبد)

يبدو أن هذه الإشكالية نشأت مما شاع من أن (من) الموصولية تـــدل علـــى العاقل ، و (ما) تدل على غير العاقل ، ولو قيل : إن هذا أمر أغلبى لما احتجنا إلى تأويل ، ولما نشأ إشكال أصلا ، وقد تأول المستمـــسكون بدلالـــة (مـــا) الموصولية على غير العاقل تأويلات يدخل معظمها فى باب التحكم والتعـــسف فقد ذكروا : ـــ

١ ـــ أن المراد بـــ (ما) الوصف ، كأنه قيل : ما أعبد من المعبـــود العظـــيم الشأن الذى لا يقادر قدر عظمته ([1]) وهو معانـــد للمقـــام لأن معبـــوداهم ـــ كذلك ـــ معظمة عندهم ، ومقام التبرؤ يمنعه ، لأن المقام ليس لأن هذا عظيم ، أو هذا غير عظيم .

٢ ـــ أن (ما) مصدرية أى : لا أعبد عبادتكم ، و لا تعبـــدون عبـــادتى ([2])، وهو معاند لحال النزول ، إذ لم يكن الخلاف فى العبادة ، و إنما كان الخـــلاف فى المعبود .

([1]) الكشاف ٤ / ٢٠٧ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٩ ، روح المعانى ١٥ / ٤٨٧ .

([2]) الكشاف ٤ / ٢٠٧ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٩ ، مسائل الرازى ٥٥٣ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٤٠٥ ، روح المعانى ١٥ / ٤٨٧ .

٣ ــ أن الأولیین بمعنی الذی و الأخریین مصدریتان ([1])، وقد وجهــه الإمــام محمد عبده بأن مفاد الجملتین الأولیین الاختلاف التــام فی المعبــود ، ومفــاد الجملتین الأخریین تمام الاختلاف فی العبادة ، فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنــا واحدة ([2])، وهو تحکم وتکلف لا سند له من سیاق ، و لا لغــة ، لأن الآیــة الخامسة هی الآیة الثالثة عینها (و لا أنتم عابدون ما أعبد) فکیف یجعل (ما) فی الآیة الثالثة موصولة ، وفی الآیة الخامسة مصدریة ، مع أن الترکیب متحــد تماما .

٤ ــ أن (ما) فی هذا الموقع بمعنی الذی ([3])، و لا أعتقــد أن لــه ســندا فی الاستعمال اللغوی .

٥ ــ أن إطلاق (ما) علی الله علی وجه المقابلة ، أی : المشاکلة ([4])، ولست أدری لماذا کل هذه الاعتذارات ، والتأویلات ؟ و الأولی أن ننظر إلی ما یهدی إلیه السیاق المقالی ، والسیاق الحالی ، وما أحسن ما ذهب إلیه جماعة من أهــل العلم من أن (ما) صالحة للإطلاق علیه ــ سبحانه وتعالی ــ لأنها موضوعة للعاقل وغیره من المختار ، و أن ذلک جائز عند أمن اللبس ، عند عــدم أمــن اللبس نستخدم (من) فی العاقل ، وأن الذی علیه سنة العــرب فی کلامهــا استخدام (ما) الموصولة ؛ لقصد الإیهام ؛ لتفید المبالغة فی التفخیم ، کقــول العرب سبحان ما سبح الرعد بحمده ، وقوله تعالی : ــ (والسماء وما بناهــا .

([1]) الکشاف ٤ / ٢٠٧ .

([2]) تفسیر جزء عم ١٢٩ .

([3]) مفاتیح الغیب ١٦ / ٧٢٠ .

([4]) مفاتیح الغیب ١٦ / ٧٢٠ ، الجامع لأحکام القرآن ١٠ / ٧٣١٨ ، مسائل الرازی ٥٥٣ ، الشهاب علی البیضاوی ٨ / ٤٠٥ ، الفتوحات الإلهیة ٤ / ٥٩٨ .

والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها) (الشمس / ٥ : ٧) كما أن مـــن فوائد التعبير بـــ (ما) أيضا هو إجراء الكلام على نمط واحد لا يختلـــف ، و إيثار (ما) هنا على (من) أقرب إلى الإنصاف ، و أدعى إلى عـــدم المـــراء أو الخلاف " [١] وهذا هو الملائم لسياق الحال والمقال ؛ لأن المشاحة فى المعبـــود ، ولم تكن فى العبادة ، ولا غير هذا . و بقى أن نقول : إن هذه التراكيب جميعـــا تتظاهر على رفضه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ معبوداهم بكل ما تتيحه اللغة من تراكيب ، وما تكتتره التراكيب من معان و إيحاءات تقطـــع دابـــر الـــشبهة ، وتجابههم بما يسوؤهم أفظع ما تكون المجابهة .

خاتمة السورة ، ودلالتها المقالية والسياقية

الآية الكريمة مركبة من جملتين هما من التراكيب المختصة بالـــسورة الكريمـــة ، والجملتان لهما دلالة مقالية هى القصر ، وهو قصر إفراد إذا ما نظرنا إلى ســـبب النزول ، وقد صرح العلامة أبو السعود بهذا ـــ وهو يشرح معـــنى القـــصر ـــ حيث قال : " وحيث كان مبنى قولهم : تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة على شركة الفريقين فى كلتا العبادتين ، كان القصر مستفادا من تقديم المسند قـــصر إفراد حتما " [٢] وهذا من أدق أشكال مجئ الكلام على مقتض حال النزول .

---

[١] الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣١٨ ، نظم الدرر ٨ / ٥٥٦ ، فتح القدير ٥ / ٥٠٧ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨٢ .

[٢] إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٧ ، والتحرير والتنوير ٣٠ / ٥٨٤ ، والشهاب ٨ / ٤٠٦ .

هذا وقد ذكروا أن الدين معناه : الحساب والجزاء والدعاء بالعبادة ([1]) ، والحق أن المقصود به : العقيدة والملة ، وكل هذه معان تترتب على معتقد الإنسان ، هذا وفى أسلوب القصر أيضا معنى التهديد "([2]) وللتركيبين أيضا دلالات سياقية منها ما ذكروه من السر وراء البدء بقوله : (لكم دينكم ولى دين) قال البقاعى : " ولما كان ذلك كله ، وبدأ النفى فى الجمل السابقة بالمنسوب إليه — صلى الله عليه وسلم — إيذانا بالاهتمام ببراءته منهم أنتج قطعا قوله مقدما لما يتعلق بهم على وجه اختصاصهم به ؛ تأكيدا لما صرح به ما مضى من براءته منهم (ولكم) ([3])

أى أنها جاءت على نهج السورة فى قطع أطماع الكفار فى اتباعه — صلى الله عليه وسلم — ومنهم من أجل ذلك قدم جملة قصرهم على دينهم ، وقد ذكر السمين الحلبى أنه أتى بهاتين الجملتين الإثباتيتين بعد جمل منفية ؛ لأنه لما كان الأهم تباعده — صلى الله عليه وسلم — من دينهم بدأ بالنفى فى الجمل السابقة ، كلما تحقق النفى رجع إلى خطابهم بقوله : (لكم دينكم ولى دين) مهادنة لهم ، ثم نسخ ذلك بالأمر بالقتال " ([4]) والحق أنه لا مهادنة ، ولا نسخ عند أكثر أهل العلم ، بل هو " تقريع ، وذم لهم بالإصرار على الكفر والضلال " ([5]) وهو الألصق بالسياق والمقام .

([1]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٧٢١ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٠ / ٧٣١٩ .

([2]) المرجعان السابقان فى الصفحات نفسها .

([3]) نظم الدرر ٨ / ٥٥٧ .

([4]) الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٨ .

([5]) زادة على البيضاوى ٤ / ٧٠٣ .

ومن الدلالات السياقية أيضا ما ذكروه من أن الآية الكريمة تأكيد لمجموع الجمل الأربع ([1]) من أول قوله : (لا أعبد ما تعبدون) إلى قوله : (و لا أنتم عابدون ما أعبد) وقد ذهب أجلة المفسرين أيضا إلى أن قوله : (لكم دينكم) تقرير لقوله : (لا أعبد ما تعبدون ، و لا أنا عابد ما عبدتم) كما أن قوله : (ولى دين) تقرير لقوله (و لا أنتم عابدون ما أعبد) ([2]) وهذا تعانق بديع بين تراكيب الآى فى السورة الواحدة ؛ لأن التراكيب كلها تتظاهر على تيئيس الكفار ، وقطع أطماعهم ؛ لذا قال الغرناطى : ـــ بعد عرض الآية السابقة على الآية ـــ " ثم قال : لكم دينكم ولى دين) فحصل التبرى ، ووضح التفصيل المتقدم " ([3])

هذا ، وليس فى الذكر الحكيم كله تركيب فى المتاركة والقهر كهذا التركيب ، وقد أشار إليه مطلع السورة الكريمة ، حينما بدأ بالخطاب الدال على ثباتهم على الكفر ، فكأن التركيب فذلكة لما فى السورة الكريمة ، وهو ثمرة تحدر المعنى من أول السورة ، هذا ، وقد ذكر البقاعى أنه ـــ سبحانه ـــ ساق الجمل كلها غير مؤكدة ؛ إشارة إلى أنها من الوضوح فى حد لا خفاء به أصلا ، ولا شك أن آخرها الذى هو اختصاص كل بدينه هو أولها الذى أفاد أنه لا يعبد معبودهم ، ولا يعبدون معبوده ، فصار آخرها أولها ، ومفصلها موصلها ، هذا هو الذى دل عليه السياق . . . ومن أعظم الدلائل على إعجازها وجمعها للمعانى فى إشارتها و إيجازها أن حاصلها قطع رجاء أهل الكفران من أن يقاربهم النبى ـــ

([1]) الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٩٨ .

([2]) إرشاد العقل السليم ٩ / ٢٠٧ ، فتح القدير ٥ / ٥٠٧ ، روح المعانى ١٥ / ٤٨٩ .

([3]) ملاك التأويل ٢ / ١١٥٤ .

صلى الله عليه وسلم ـــ فى أن يعدل بربه أحدا فى زمن من الأزمـــان "([1]) أمـــا خلو السورة الكريمة من المؤكدات ، ففيه إظهار للثقة فى التبرى ، وهو أحـــسن ما يكون مطابقة لحال الترول ، و أعظم فى تأييده ـــ صلى الله عليه وســـلم ـــ وأعلى تقوية لشوكته من سوقه بمؤكدات .

خلو السورة الكريمة من الأسماء الحسنى ، وملاءمته المقام

انتهى بنا القول فى تحليل السورة الكريمة ـــ فى ضوء سبب الترول ، وهو المقـــام المباشر للسورة الكريمة ـــ انتهى بنا إلى أن تراكيب السورة تتظاهر على تبريـــه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من معبوداهم ، فأخليت السورة من الأسماء الحسنى ؛ سدا للذرائع ؛ و إظهارا لتمام التبرى ، فإخلاء السورة الكريمة مـــن الأسمـــاء الحسنى ألصق بالمقصود ، و أعون على إظهار التبرى ، ولو ذكر أى من الأسماء الحسنى لا قتضى ذلك أن تذكر معبوداهم بأسمائها ، وفى هذا توســـيع لـــدائرة المشاحة والجدل ، ألا ترى أهم فى صلح الحديبية ، لما كتب ســـيدنا علـــى ـــ رضى الله عنه ـــ (بسم الله الرحمن الرحيم) أنكروا عليه ذلك ، وقالوا لـــه : اكتب ما نعرفه ، اكتب : باسمك اللهم ، وحينما كتب هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله ، قالوا : لو كنا نعرف أنك رسول الله ما حاربناك ([2]) فأمر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بمحوها ، وجريا على هذا النسق عبر بـــــ (مـــا) للدلالة على معبوداهم ، وكذلك دلت (ما) على معبوده ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ ولك أن تتخيل معى لو أن التركيب كان : لا أعبد اللات ، فمـــاذا يكون موقف عابدى هبل أو العزى ، وقد كان لكل قبيلـــة صـــنم ، وكـــان

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥٥٧ .

([2]) مسند الإمام أحمد ـــ باقى مسند المكثرين حديث رقم ١٣٣٢٥ .

التركيب يجب أن يكون كذلك لو أنه جاء فى المقابل باسم من الأسماء الحسنى ، أما الأمر فى السورة ـــ مطابقة لحال النزول ـــ فهو على غلـــق بـــاب الجـــدل والحوار والمناقشة بكل سبيل ؛ إعلانا لتمام التبرى ، كما أنك لا تفـــتح بابـــا للعتاب لمن تصر على مقاطعته ، و إنهاء كل صور العلاقة معه ، هذا ما ظهـــر لى فالله أعلم .

تراكيب السورة وملاءمتها الزمان كله

لا يمكننا على الإطلاق أن نقصر الآيات على حال النزول ، ولا على ما ذكـــر من سبب النزول ، و إنما تبقى الواقعة رمزا لكل ما يتكرر مـــن الوقـــائع عـــبر الزمان ، وكل مقام يجرى فيه استنزال متبعيه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ عـــن دينهم ، تكون السورة بتراكيبها وموقعها فى الذكر الحكيم ؛ مقتضى لهذا الحال ، وتلك الواقعة ، و ليكون خطاب السورة لأعداء الله نهاية المطاف ، ومنتـــهى الطريق ، كما دل عليه موقع السورة فى المصحف الـــشريف ، فقـــد وقعـــت السورة قبل ختم المصحف الشريف بخمس سور ، ووقعت تلخيصا موجزا لكل محورات القرآن الكريم مع أعداء الله ، وجاءت تراكيبها مطابقة هذا الموقـــع ، حيث إن تراكيبها تلائم حالة اليأس التامة ممن يدعون إلى الله ،ويكون الـــضلال مسيطرا سيطرة تامة .

ولم يغب هذا الفهم عن سلفنا ـــ رضوان الله عليهم ـــ فقد ألاحوا إلى هـــذا فى كلامهم ، تأمل قولهم " فقوله : ـــ تعالى (قل يأيها الكافرون) يـــشمل كـــل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قـــريش "([1])

([1]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٧١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٣١٦ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٠ ، فتح القدير ٥ / ٥٠٦ .

وتأمل قول البقاعى : " واستغرقت اللام كل من كان على هذا الوصف فى كل مكان وكل زمان " ([1]) فاللام للاستغراق لتطوى فى رحمها كل من يصدق عليه هذا الوصف ، وللعهد حين المواجهة بهذا الخطاب ، والذكر الحكيم يدلنا على أن محاولات استنزال محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن دينهم شائعة ومستفيضة ، تأمل قوله : ــ تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق . . .) (البقرة / ١٠٩) وقوله : ــ تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى . . .) (البقرة / ١٢٠) ومثله قوله : ــ (و لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . .) (البقرة / ٢١٧) وهذه الآيات تدلك على أن إصرار الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم مستمر عبر كل زمان ؛ لذا عبر بالمضارع فى المواضع كلها (يردونكم ــ ترضى ــ حتى يردوكم) وواقع الحال يؤيد هذا ، من مثل توجيه التنصير نحو المسلمين خاصة ؛ لا ستنزالهم عن دينهم ببذل النفس والنفيس فى هذا الباب .

ومن لطائف ذلك أيضا أنه عبر باسم الموصول (ما) وهو أدخل الموصولات فى الإبهام ؛ ليشمل الذكر و الأنثى والعاقل وغيره ، والمفرد وغيره ، وكل يوم تستحدث فيه معبودات جديدة لأهل الكفر ، فوضع فى التراكيب ما يلائم عالمية الرسالة والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ و أصبحت تراكيب السورة الكريمة تطوى وقائع الزمان المشابهة لحال النزول فى رحمها ، وتشمل كل أنواع المعبودات من غير الله كيفا وكمًّا ، وهو من أعظم آيات الإعجاز .

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥٥٤ .

هذا ، ومما ينبغي الإشارة إليه أيضا أن تراكيب السورة خلت مـــن التعـــبيرات المجازية ، لأننا أمام أمر محدد و واضح ، وهو إعلان البراء ، و الأسلوب الحقيقى هو الملائم لمثل هذا اللون من المعانى ، فلا يجوز إيراد تعبيرات مجازية حمالة وجوه ؛ لأن الهدف يتجه إلى سد كل ثغرة فى الحوار إخلاصا للتبرى ، فلله نور هـــذا الكتاب ، ومن لطائف السلف ــ رضوان الله عليهم ــ أيضا أنهـــم استـــشفوا مقصد السورة من موقعها فى المصحف الـــشريف ، والموضـــع فى المـــصحف الشريف يشكل بوضعيته حلقة فى الدعوة إلى الله ؛ لذلك قال البقـــاعى : ـــــ محددا مقصد السورة " مقصودها إثبات مقصود الكوثر بالدليل الشهودى "[1] وتأييد الله أولياءه من أعظم المنح لأنه ينصرهم بذلك على شانئيهم ، فالـــسورة فى كل زمان نهاية المطاف ، أو تمثل نهاية المطاف والمتاركة الناتجة عن اليأس التام ؛ أبدا بين أولياء الله و أعدائه .

---

[1] نظم الدرر ٨ / ٥٥٣ .

الفصل الخامس
سورة القارعة

موقع السورة فى النزول ودلالته

السورة الكريمة هى الثلاثون نزولا ، وقد نزلت بعد سورة قريش ، وبينهما تناسب رائع ، حيث اختصت سورة قريش بالحديث عن رحلتى الشتاء و الصيف ، وقد كانتا مطعمهم ومشربهم ، وكل شئ لهم ، و أمرهما راجع إلى الله فى وضع مهابة قريش التى هى من مهابة البيت فى صدور العرب جميعا ، مما جعل قريشا فى مأمن من القتل والسرقة ،و لولا ذلك لقتلهم الجوع ، و أهلكهم الخوف ، و أعلى من ذلك أن الله لم يرزقهم أمنا معتادا ، و غنما رزقهم أمنا فوق العادة ، حيث ترتب على ذلك إيلافهم هاتين الرحلتين ، و إنما يألف المرء ما يحب ، ويتعلق بما به حياته ، و يأنس لما خلا من كل وجوه الخوف ، فالسورة كاشفة عن امتنان الله على قريش بهاتين الرحلتين ، و لولاهما لم تكن حياة ، و أى حياة تلك التى لا تنعم بأمن ولا شبع . فقد كفل الله لهم البقاء النفسى (و آمنهم من خوف) والبقاء الجسدى (و أطعمهم من جوع) فالخطاب موجه للقرشيين خاصة ، وهم الذين تولوا كبر إيذائه — صلى الله عليه وسلم — وصحبه ، و إثمهم فى إيذائه أكبر من إثم سواهم ، فلقد كان النظر تائقا إلى إجارتهم له ، وحمايتهم إياه ، فلما آذوه اجترأ عليه كل مؤذ ، ونال منه الجميع ممن لم يهدهم الله سواء السبيل .

وقد جاءت سورة القارعة بعد ذلك ؛ تأكيدا صـــريحا للتهديـــد الـــذى أضمرته سورة قريش ؛ لأن تراكيبها أوحت بأن من كان قديرا علـــى الإنعـــام عليهم بـــ (أطعمهم من جوع . و آمنهم من خوف) على سلب ذلك أقدر ، و ألا يغرهم ما هم فيه من جاه وعظمة وشرف مكانة ، وعلو منزلة بين العـــرب ؛ لأن القارعة ـــ وهى أقوى أسماء القيامة ـــ ستأتيهم لا محالة ، و أن كبرياءهم وغطرستهم تلك ستكون أهون من فراشة ؛ لأنهم ليسوا أقوى من الجبال بنيانا ، و لا أعظم منها، وحال الجبال سيصير إلى أضعف حال (وتكون الجبال كالعهن المنفوش).

ولك أن تضع سورة القارعة بعد سورة قريش ، و أن تتأمل التراكيـــب لتـــرى العجب (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع و آمنهم من خوف) (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة . . .) إنه هول رهيب ، وتهديد مميت : إن لم يعبـــدوا فالقارعـــة ، أى كبر ذلك الذى يحملهم على عدم الإيمان ، وليسوا قادرين على إطعام أنفسهم ، و لا تأمين أرواحهم . إن من له أدنى تدبر يدرك أنه ما دام غير قادر على تـــأمين طعامه وروحه ونفسه ، فهو أذل من كل شئ ؛ لذا جاء بالقارعة؛ لأن القـــرع هو أشد ما يذل به الإنسان ؛ لذا قالوا : ـــ

والعبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه المقالة

ثم تأمل هذا التسلسل العجيب فى ترتيب النزول ، سورة قريش نزلـــت بعـــد سورة التين ، وفى سورة التين أقسم بالبلد الأمين (وهـــذا البلـــد الأمـــين) ثم جاءت قريش حديثا عن امتنان الله عليهم بالأمن فقد قرن الحديث عن الآهـــل

بالحديث عن المأهول ، وفى سورة التين أيضا (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين) (التين / ٤ ، ٥) تأمل هذا النسق العجيب ، و أبصر معى الآيتين اللتين ذكرتهما لك ، و أبصر معهما قوله : ـ تعالى (الذى أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف) أى وفرت لهم مقومات البدن والروح ، و كأنه شرح للآية الأولى (لقد خلقنا الإنسان . . .) ثم تأمل كيف شرحت سورة القارعة قوله : ـ تعالى ـ من سورة التين (ثم رددناه أسفل سافلين) بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) وقوله : (و أما من خفت موازينه فأمه هاوية) ولك أن تبصر هذا التناسب الرائع بين قوله : (أسفل سافلين) (فأمه هاوية) إنه شئ عجيب ، و لا أطيق التعبير عن أعظم بيان و أشرفه فوق هذا ، لكننى ـ فقط ـ أشير ، و أدل ، و أصف شيئا مما أحس ، و لا أطيق وصف كل ما أحس ، وربما يضئ الله لك بصيرتك ، فتكون أقوى بصرا ، و أهدى سبيلا فى الإبانة منى ، فالأمر ـ كما ترى ـ من الإعجاز فى التناسب الذى يذهل عنه الكثيرون ، ومراقبة هذه الامتدادات للمعانى فى السور المتجاورة نزولا أمر شاق وعسير .

موقع السورة فى الكتاب العزيز ودلالته

إذا كنت قد أبصرت عجبا فى امتدادات المعانى فى السور المتجاورة نزولا ، فإن عجبك فى السور المتجاورة فى الترتيب المصحفى سيكون أكثر عجبا حين أعرض لك شيئا مما تحسه النفس ، و لا يحيط به الوصف ، كما قال أسلافنا . سورة القارعة تقع فى المصحف الشريف عقب سورة العاديات ، وسورة العاديات تقع عقب سورة الزلزلة ، و لا أطيق أن أمتد بك فى إبصار التناسب أكثر من هذا ، حتى لا نخرج عن إطار بحثنا ، ونذهب إلى سورة الفاتحة لنبصر

خيط معانى السورة الذى يمتد منها إلى سورة الفاتحة ، ومن سورة الفاتحة إليها ، لكنى فقط أدل و أشير .

تأمل (فأثرن به نقعا) (العاديات / ٤) مع (وتكون الجبال كالعهن المنفـــوش) (القارعة / ٥) وما فى الأول من دلالة الواقع على تحريك الساكن ، وكيف يتطاير الغبار الذى هو أصغر وحدات الجبال ، وقد كان قبل الإغارة ســـاكنا ، ولك أن تقارن بين فزع الحروب ، والفزع الأعظم . ثم تأمل (أفلا يعلـــم إذا بعثر ما فى القبور) (العاديات / ٩) مع قوله : (يوم يكون الناس كـــالفراش المبثوث) (القارعة / ٤) تأمل كلمة (بعثر) وما فيها من ضعف المبعثر علـــى غير نظام ، وحال الفراش المبثوث ، كأن التشبيه فى ســـورة القارعـــة تـــصوير للبعثرة فى سورة العاديات .

ثم تأمل قوله (وحصل ما فى الصدور) (العاديات / ١٠) وهو تهديد مميـــت ، فلا يطيق أحد أن يقول : إننى أستطيع قراءة ما فى الصدور ، فـــضلا عـــن أن يحصل ما فيها ، تأمل هذا مع قصة الميزان فى سورة القارعة (فأما مـــن ثقلـــت موازينه . . . و أما من خفت موازينه) فكأن هذه الآيات شرح لما فى العاديات ، وكأن ما فى العاديات تمهيد وتوطئة له ، ثم ارجع بهذه الآيات التى قرنتها لـــك فى النظر إلى قوله : ــ تعالى ــ فى الزلزلة (يومئذ يـــصدر النـــاس أشـــتاتا) (الزلزلة / ٦) انظر (أشتاتا ــ بعثر ــ الفراش المبثوث) انظر كل هذا ، وقـــل الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) (الكهف / ١) أى بيان أعظم من هذا ، و أى نور أقوى من هذا ، اقرأ كتـــب البـــشر جميعـــا و إبداعاتهم كلها ، هل ترى شيئا من هذا ؟ ! لا والله إنه نور الله يـــسطع لكـــل بصير ، ويقهر كل جبار عنيد .

ثم تأمل معى (و أخرجت الأرض أثقالها) (الزلزلة / ٢) مع قوله : ـــ تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) فى القارعة ، ماذا ترى ؟ ! ثم تأمل قولـــه : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (الزلزلة / ٧ ، ٨) مع قوله : (فأما من ثقلت موازينه . . .) إنه تناسق عجيب وترتيب بديع لا يكون إلا من الله وحده ، وقد رأيت التعانق العجيب فى ترتيـــب المعـــانى ، وامتدادها فى ترتيبى النزول والمصحف الشريف .

وقد ألمع القدماء إلى مناسبة السورة لما قبلها من ذلك ما ذكره ابن الزبير حين قال: " لما قال : ـــ سبحانه ـــ (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور) كان ذلك مظنة للسؤال : متى ذلك ؟ فقيل : يوم القيامة الهائل الأمر الفظيع الحال ، الشديد البأس ، والقيامة هى القارعة ، وكررها تعظيما لأمرها " ([1])، وقد ذكر الفخر ـــ رحمه الله ـــ أنه ـــ سبحانه وتعالى ـــ لما ختم الـــسورة المتقدمة بقوله (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فكأنه قيل : وما ذلك اليوم ؟ قيـــل : هى القارعة " ([2]) وهو وجه من التناسب أيضا .

حال النزول

سبق أن أسلفنا أن سورة القارعة هى الثلاثون نزولا ، فيكون نزولها فيما بـــين الهجرة إلى الحبشة و الإسراء تقريبا ، هذا ، وقد لاقى المؤمنـــون ألوانـــا مـــن العذاب أقسى مما نالوه قبل هذه الفترة ، وضيق عليهم الخناق جدا ، فبعد عودة المؤمنين من هجرة الحبشة الثانية اجتمع المشركون ، وائتمروا أن يكتبوا كتابـــا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على ألا ينكحـــوا إلـــيهم ، و لا

([1]) البرهان ٢٣٨ .

([2]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٥٩٨ .

ينكحوهم ، و لا يبيعوهم شيئا ، و لا يبتاعوا منهم ، و أنهــم كتبــوا بــذلك صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة ، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم ، وبنو المطلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعبه ، واجتمعوا له ، وخرج مــن بنى هاشم أبو لهب ، فانحاز إلى قريش ، وظاهرهم ، وقد كان موقف أبى طالــب رائعا إذ جمع بنى عبد المطلب ، و أمرهم أن يدخلوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شعبهم ، و أمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله ، فاجتمع علــى ذلــك مسلمهم وكافرهم ، ولما عرف مشركو قريش ذلك أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، و لا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ للقتل وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهدا ومواثيق لا يقبلوا مــن بــنى هاشم ، صلحا أبدا ، و لا تأخذهم رأفة حتى يسلموه للقتل ، فلبث بنو هاشــم فى شعبهم ثلاث سنين ، واشتد عليهم البلاء والجهد ، و قطعوا عنهم الأسواق ، فلم يتركوا لهم طعاما يقدم مكة ، و لا بيعا إلا بادروهم إليه فاشتروه يريــدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى أن سلط الله الأرضة على الصحيفة فأكلتها إلا باسمك اللهم ، وانتهى أمر المقاطعة بعــد ثلاث سنين من الكد والجهد والبلاء ، أرأيت كيف طور المــشركون إيــذاءهم وحربهم للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ و أصحابه ، وكيــف اســتخدموا الطعام سبيلا لهذا فى هذا الآن نزلت سورة قريش تنبيها لهــم إلى أن لم يقــدروا على إطعام أنفسهم ، ولكن الله هو الذى أطعمهم (فليعبدوا رب هذا البيــت الذى أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف) غير أنهم ظلوا على طريقتــهم فى إيذائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ و أخذوا ينفرون العرب القــادمين إلى مكــة لحج أو لعمرة أو غير ذلك من محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومما زاد الأمــر

شدة أن أبا طالب عم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى كـــان لـــه عضدا وحرزا ومانعا وناصرا له على قومه قد توفى ، وكان ذلك فى العام العاشر للبعثة ، ومما ضاعف من اشتداد البلاء أن أم المؤمنين خديجة ــ رضى الله عنـــها ــ توفيت بعد ذلك بشهرين مما فتح باب الجرأة على مـــصراعيه للمـــشركين ؛ ليكيلوا ألوانا شتى من العذاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن لهـــم أن يفعلوا مثلها من قبل.

حين ننظر فيما مضى مما هو مستخلص من كتب السير ، نرى أن قريشا كانـــت فى أول المواجهين له ــ صلى الله عليه وسلم ــ خلا بنى المطلب وبنى هاشم من قريش ؛ لذا كان نزول سورة قريش فى هذا الوقت ؛ تأييدا للرسول ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ ومن معه ، وتهديدا لقريش ، ثم نزلت سورة القارعة لتكـــون أبلغ رد على أفعالهم ، وتعاظمهم وكبريائهم ؛ لأنه لم يدفعهم إلى مـــا فعلـــوا إلا الكبر والعجب ، و الإنصات لهوى النفس ، و وسواس الهوى .

التصور الجملى للسورة

السورة الكريمة مكونة من أربع جمل . جملتان تتحدثان عن القارعة وتهويلها ، و أخريان تتحدثان عما يجرى فيها ، بمراحلها المختلفة (تدمير الكون ــ البعث ــ الحساب) وكلها تدور حول إثبات وقوع البعث ، ومـــا يترتـــب عليـــه مـــن الحساب والجزاء .

تراكيب السورة فى ضوء حال النزول

القارعة وتهويل أمرها (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة)

هذا التركيب من الأنماط النادرة فى القرآن الكريم ، ولم يقع بهذه الهيئة إلا فى سورتين اثنتين ، هذه السورة ، وسورة الحاقة (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة) (الحاقة / ١ : ٣) مع ملحظ مهم ، هو أن هذا التركيب لم يرد إلا فى الحديث عن القيامة، وسورة الحاقة هى السورة الرابعة والستون نزولا ، وسورتنا هذه هى الثلاثون نزولا ، فبينهما زمن طويل فى النزول ، والذى نلحظه أن السورتين اشتملتا على اجتزاء صورة من تدمير الكون (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة) (الحاقة / ١٤ ، ١٥) ووسعت فى هذا الحدث عن سورة القيامة ، كذلك اشتملت السورتان على الكلام الحساب ، وفى سورة الحاقة تفصيل عما فى سورة القيامة ، و إن كان هناك تشابه فى مآل من ثقلت موازينه (فهو فى عيشة راضية) (الحاقة / ٢١ ، والقارعة / ٧) ، و أتبع المآل فى سورة الحاقة بتفصيل لا يوجد فى القارعة ، وافترقت السورتان فى بيان من خفت موازينه ، كذلك أشير إلى البعث فى السورتين (ويحمل عرش ربك . . .) (الحاقة / ١٧) .

هذا التشابه القوى بين السورتين ـ والذى يبدو للناظر من مطلع السورتين الكريمتين ، حيث اتفق مطلعهما فى القالب ما ذكرته ـ يكشف لنا شيئا هو أن سورة القارعة تلخيص مركز للأحوال المذكورة فى سورة الحاقة ، وهذا الإيجاز أمر ملائم جدا لحال نزول سورة القارعة ، فكلما كانت التهديد

أوجز كان ذلك أعون على الحفظ ، والحفظ أيسر فى التكرار ، فيتكرر بـــذلك التهديد والوعيد أكبر قدر ممكن ، وذلك أقرع للسمع ، و أذهب للكبر ، وهذا الأمر هو المناسب لتكرار الأذى ، أما الأمر حين نزول سورة الحاقة ، فقد كـــان مختلفا فبينهما زمن طويل فى النزول ، وقتها كان الإسلام قد امتد نوره ، واشتد عوده ، وقوى ساعده . وشئ آخر نلحظه فى التعبير بالقارعة ، وهى من القرع الذى هو ضرب شئ على شئ ، ومنه قرعته بالمقرعـــة ، أى : ضـــربته بـــشدة واعتماد ، فهو تعبير يوحى بالإذلال و الإهانة ، وهو الملائـــم حـــال الـــنزول ، والمناسب لخطاب المتعاظمين المتكبرين ، الذين ينالون من ضعاف المسلمين وقتها ؛ لذا لو قال هنا: الحاقة ما الحاقة ، ما صلح للحال ، ولما لاءم المقام ؛ لذا قال أئمتنا : " و إنما سميت القارعة ؛ لأنها تقزع القلوب بالأهوال ، ويقال : سماهـــا قارعة لثلاثة : لأنها تقرع فى أذن العبد بما عمل وسمعه ، والثانى : أنهـــا تقـــرع أركان العبد بعضه فى بعض ، والثالث : أنها تقرع القلوب كما تقرع القـــصار الثوب " ([1])

والقارعة " تقرع الناس بالأفزاع ، أى : تصيبهم بها كأنها تقرعهم بهـــا شـــبهت الإصابة بالفزع ، فسميت باسمه ، ثم اشتق منه فهى استعارة تبعية " ([2]) فحـــين افتتحت السورة بهذا الاسم المرعب تخيلت أنت القيامة رجلا جبارا يملك مـــن أدوات القرع التى يذل بها مملوكيه ، ما يخلع الفؤاد ، وهل يناسب الغطرسة إلا الفزع ، وقد نبه القرآن الكريم على الفرق بين (الحاقة) و (القارعـــة) ففـــى سورة الحاقة افتتحت السورة بالحاقة ، وبعد عدة آيات قال : (كـــذبت ثمـــود

([1]) بحر العلوم ٣ / ٥٠٥ .

([2]) حاشية زادة على البيضاوى ٤ / ٥٣٥ .

وعاد بالقارعة) (الحاقة / ٤) وكان الظاهر أن يقول : كذبت ثمـــود وعـــاد بالحاقة " إلا أنه وضع لفظ القارعة موضع الحاقة لما فى القارعة من الدلالة علـــى الشدة والهول ما ليس فى ضمير الحاقة " ([1]) فالقارعة أشد لما أنها تهجـــم علـــى القلوب بالأمر الهائل .

هذا ، ومع ما فى اسم القارعة من الهول ، ازداد الهول شدة بوضـــعه فى نـــسيج لغوى يزيده هولا وشدة ؛ زيادة فى مجابهتهم بالتهديد والوعيـــد ، وقـــد فعلـــوا بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ و أصحابه ما فعلوا ، ففى افتتاح الـــسورة بهذا الاسم (القارعة) ؛ إيماء إلى وجه بناء تراكيبها ، فهى لا تخلـــف إلا ذلـــة وهوانا لمن استهان بها ولم يقدرها قدرها ، فقد خلفت الجبال عهنـــا منفوشـــا ، وخلفت الناس فراشا مبثوثا ، و لا أهون من هذا ، و لا أضعف ، وسيأتى مزيد تفصيل لهذا الأمر بالنظر إلى أشباه المعانى فى السور الأخرى .

ومع ما فى هذا الاسم من الهول رأيته تكرر ثلاث مرات فى السورة ، وفى تتـــابع مخيف ، والقارعة عند العرب هى الأمر الفظيع ؛ لذا قال ابن أحمر : ــ

وقارعة من الأيام لـــــولا * سبيلهـــم لزالت عنك حينا

وقول الآخر : ــ

متى نقرع بمروتكم نسؤكم * ولم توقد لنـــا فى القدر نار

وقد جرت عادة القرآن أنه إذا نكر قارعة أراد الشديدة من شدائد الدهر ، ولم يقع هذا فى القرآن إلا مرة واحدة (و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صـــنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم . . .) (الرعد / ٣١) ، و إذا عرّفها انصرفت إلى يوم القيامة ن ولم يرد هذا الاسم إلا فى سورة الحاقة مرة واحدة ، وفى سورة

[1] السابق ٤ / ٥٣٥ .

القارعة ثلاث مرات ، والعرب الذين نزل فيهم القرآن يفقهون اللغة وبيانها ، ويعرفون الفرق بين التعريف والتنكير ، فإذا ما كانت أى قارعة من قوارع الدهر تخيفهم وترعبهم ، فكيف إذا ما اجتمعت كل شدائد الدهر ، ثم لم تساوى بجانب القارعة شيئا ، إنه أمر لا يطاق حمله بحال ، وقد صاغها القرآن فى أسلوب نادر الورود فى الذكر الحكيم كما أسلفنا .

القارعة : مبتدأ ، ما القارعة : ما مبتدأ ثان ، والقارعة : خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول ، تأمل كيف أوقعها التركيب خبرا عن نفسها ، وذلك مما يضاعف من التهويل ، وقد جاءت (ما) الاستفهامية ؛ لتفيد التعظيم والتفخيم لشأنها كما ذكر الأئمة ([1]) وقد جاءت جملة أخرى ؛ لتضاعف من هذا الهول (و ما أدراك ما القارعة) ، وهى تؤكد شدة هول القارعة ، ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم ، أى : كيفما قدرته ، فهى أعظم من تقديرك ، كأن قوارع الدنيا بجنب تلك القوارع ليست بقوارع " ([2])، أرأيت تداخلا مثل تداخل هذا التركيب وتتابعا كتتابعه ، وهو يحكى تداخل وتتابع الحركات والفزع فى القارعة ، و كأنه أريد للقارعة أن تتشكل فى بيان يقرع أفئدتهم ليفزعها .

وقد جرت عادة القرآن الكريم على إجراء مثل هذا الأسلوب (و ما أدراك) فى أحوال الفزع والتخويف ، إلا فى موضعين فقط ، ورد التعبير فيهما للتعظيم ؛ ترغيبا فى القيام بالعمل الصالح (و ما أدراك ما عليون) (المطففين / ١٩) (

([1]) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٢٥٤ ، نظم الدرر ٨ / ٥١٣ ، فتح القدير ٥ / ٤٨٦ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٢ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٧٨ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١٠ .

([2]) فتح القدير ٥ / ٤٨٦ .

و ما أدراك ما ليلة القدر) (القدر / ٢) أما بقية المواضع فهى مثلها فى تعظيم أمر النار والقيامة واليوم الآخر (و ما أدراك ما الحاقة) (الحاقة / ٣) و ما أدراك ما سقر) (المدثر / ٢٧) (و ما أدراك ما يوم الفصل) (المرسلات / ١٤) (و ما أدراك ما يوم الدين) (الانفطار / ١٧ ، ١٨) (و ما أدراك ما سجين) (المطففين / ٨) (و ما أدراك ما الطارق) (الطارق / ٢) (و ما أدراك ما العقبة) (البلد / ١٢) (و ما أدراك ما الحطمة) (الهمزة / ٥) فهو أسلوب دال على التعظيم والتهويل أبدا كما يتبين للناظر فى هذه التراكيب مجتمعة ، وكأن العرب لا تستعمل مثل هذا النمط من التراكيب إلا فى أمرى التعظيم والتهويل ، ومما ضاعف من التهويل أيضا أنه أظهر فى موضع الإضمار ([1]) ، وكان الظاهر أن يقول : و ما أدراك ما هى .

وقد تأول البقاعى ـــ رحمه الله ـــ معنى القارعة بما يلائم جريان المعانى فى السورة ، حيث قال : " القارعة : أى الصيحة ، أو القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تقرع أسماع الناس ، وتدقها دقا شديدا عظيما مزعجا بالأفزاع و الأجرام الكثيفة بالتشقق ، والانفطار ، و الأشياء الثابتة بالانتثار " ([2]) ، فقد اجتمع فى هذا التركيب ما يؤدى إلى التعظيم والتهويل ، كما لم يجتمع لتركيب آخر ، وذلك من عدة وجوه : ـــ

أولا : اللفظة المكونة للتركيب (القارعة) .

ثانيا : تكرار هذه اللفظة (القارعة) مع تعريفها .

([1]) ينظر نظم الدرر ٨ / ٥١٣ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٢ ، فتح القدير ٥ / ٤٨٦ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١٠ .

([2]) نظم الدرر ٨ / ٥١٣ .

ثالثا : الإظهار فى موضع الإضمار على خلاف الظاهر (و ما أدراك ما القارعة)
رابعا : الاستفهام المذكور مرتين ، والمفيد التفخيم والتعظيم والتعجب .
خامسا : القالب اللغوى الجارى فى كلام العرب ، والقـــرآن علـــى التعظـــيم والتهويل .
سادسا : التداخل العجيب فى تركيب الجملة الأولى ، وعطف الثانية عليها .
سابعا : افتتاح السورة الكريمة بما هو مخيف ومرعب ومهول ، فيكون أول مـــا يقرع السمع أخوف شئ ، وهو مما يوحى بأن ما بعده أخوف منه .
وغير ذلك مما لم يظهر لنا ، هذا التركيب بطاقاته هذه التى حاولنا بيان شئ منها هو مقتضى حال المقام الذى أنزل فيه ، وقد بينت كتب السيرة هـــذا الحـــال ، كما أوجزناه فى حال النزول .

آثار القارعة

أولا : حال الناس عند النشر (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث)

هذا التركيب من خصائص السورة الكريمة ، وما من سبيل للكشف عن تناسب هذا التشبيه مع مطلع السورة الكريمة إلا النظر فى التشبيهات المتقاربة مع هـــذا التشبيه ، و الآيات المتناولة هذا المعنى ، خذ من ذلك مثلا قوله : ـــــ تعـــالى (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا) (الكهف / ٩٩) وتتحدث سورة (يس) عن شكل هذا الجمع (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) (يس / ٥١) ، وهى تصور تسارعهم فى المشى ، ثم جاءت سورة القمـــر ؛ لتصور هذا التسارع (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شئ نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقـــول الكـــافرون هذا يوم عسر) (القمر / ٦ : ٨) وصورة ثانية (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى

يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجـــداث ســـراعا كـــأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) (المعارج / ٤٢ : ٤٤) (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) (النبـــأ / ١٨) .

إننا أمام نمط عجيب من تحدر المعنى الواحد فى سور القرآن الكريم على ترتيـــب المصحف الشريف ، فما فى سورة الكهف إجمال للحديث عن الجمع بعد البعث ، وسورة (يس) ذكرت فقط إسراعهم فى المشى دون بيان لـــشئ آخـــر ، ثم جاءت سورة القمر ؛ لتصف جانبا من حركتهم فى هـــذا المـــشى المتـــسارع و الاضطراب ، والتدافع والجولان ، والتخبط ، الكل يتحرك ، ويموج من غـــير تحديد ، كما قال شيخنا الدكتور أبو موسى ([1])

ثم تنهى هذه المعاناة بالذلة والخضوع (خشعا أبصارهم) ثم تأتى سورة القارعة لتصور حالهم فى الذلة والخضوع ، وكيف صاروا فراشا مبثوثا ، وبمقارنة سريعة بين الجراد والفراش نلحظ أن تشبيه القارعة يقع فى الترتيب بعد تشبيه القمـــر ، لما بين الجراد والفراش من وشيجة القربى ، حيث إنهما من فصيلة واحدة ، بيـــد أن الجراد أقوى من الفراش ، ولنا أن نلمح هذه المعاناة أيضا فى قيدين مهمـــين للمشبه به فى السورتين ، فقد وصف الجراد باسم الفاعل (منتشر) وهو مـــن انتشر ، وفى الفعل من الإرادة ما يكشف عن فضل قـــوة ونـــوع إرادة ، أمـــا الوصف فى سورة القارعة ، فقد جاء اسم مفعول (مبثوث) من بـــث بالبنـــاء للمفعول ، وقد ضاعف القيد من تصوير ذلتهم وخضوعهم وهـــوانهم ، فلـــم يكتف القرآن بتصويرهم بالفراش فى الذلة والضعف والهوان حتى وصفه بأنـــه

([1]) التصوير البيانى ٢٨ : ٣٠ د / محمد أبو موسى .

مبثوث ، وهذا من دقائق القرآن الكريم ، وهذه الصورة هى الملائمة لهذا المقـــام الذى نزلت فيه السورة ، و ألذع فى مجابهة المخاطبين حال النزول بهذا التركيب ، وملائم لكل حال يمكن أن ينشأ شبيها بحال النزول ، و ما أكثر محاربة أهـــل الدعوة ، و أهل العلم و الاستمساك بالحق فى كل زمان .

قلت : إنه لا سبيل لنا إلى استكشاف علاقة هذا التشبيه بمفتـــتح الـــسورة إلا بالنظر فى أشباهه من المعانى فى السور الأخرى ، وقد سبق أن أسلفت أن تـــشبيه القارعة هو فى الترتيب نهاية المآل الذى يصير إليه الناس عند البعـــث ، فـــارجع معى البصر مرة أخرى ؛ لتبصر لطائف العلائق بين معانى الـــسور ومطالعهـــا ، تأمل سورة القمر ، وهى مفتتحة بقوله : ـــ تعالى (اقتربت الـــساعة وانـــشق القمر) (القمر / ١) وذكرت لك أن التقارب شديد جدا بين تشبيهى القمـــر والقارعة ، بالنظر فى المشبه به فى الموضعين ، وما وصف به كل فى موضـــعه ، هذا التقارب يحكيه أيضا مطلعا السورتين ، تأمل معى (اقتربـــت الـــساعة) (القارعة ما القارعة) لا تملك إلا أن تضعهما فى نسق متتابع ؛ لترى أن التقارب الشديد بين تصويرى القرآن حال الناس عند النـــشر ، هـــو تجـــاوب لمطلـــع السورتين ؛ لأن عادة الذكر الحكيم إلقاء غرضه فى صدر السورة الكريمـــة ، ثم تأتى المعانى ناظرة إلى مطالع السور ، أما سورة المعارج فتشبيهها متقـــارب مـــع معنى الآية فى سورة (يس) ، ولو أبصرنا مطلع السورة لوجدنا تفسيرا لهـــذا (سأل سائل بعذاب واقع) (المعارج / ١) وكأن السورة جواب لسؤال .

ما ذكرته لك من أمر الافتتاح بالقارعة ، وكيف أذلتهم كما يـــضرب المجـــرم بالمقرعة ، هذا وقد وصفهم بما جرى فى كلامهم على الوهن والضعف والحقارة

، فمن كلامهم أضعف من فراشة ، و أذل وأجهل " ([1]) وقد ذكر العلماء أنهم " شبهوا بالفراش لأنهم يلقون بأنفسهم فى النار ، كما يلقى الفراش نفسه فى النار " ([2]) لأنه " مثل فى الحيرة و الجهل بالعاقبة " ([3]) وقد كانت صورة الفراش خير وسيلة لطعن جرير على الفرزدق ، وقومه : ـــ

إن الفرزدق ما علمت وقومه * مثل الفراش غشين نار المصطلى

أرأيت كيف صورهم متهافتين على ما يهلكهم تهافت الفراش على النار ، فقد وصفهم بخفة العقول والطيش ، وذلك من أعظم الطعن عليهم ، هذا ، وقد اختلفوا فى إعراب (يوم يكون الناس) على وجوه : ـــ

١ ـــ أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هى ، أى : هى يوم يكون .. .

٢ ـــ أنه منصوب بإضمار اذكر ، أو تكون .

٣ ـــ أنه منصوب بإضمار ناصب يدل عليه القارعة ، أى : تقرع يوم يكون الناس .

٤ـــ أن التقدير ستأتيكم القارعة يوم يكون الناس ([4]).

وقد ذكر ابن عاشور أن جملة (يوم يكون الناس) مع متعلقها المحذوف بيان للإبهامين اللذين فى قوله : ـــ تعالى (و ما أدراك ما القارعة) . . . والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل ، بما أضيف إليه يوم من الجملتين المفيدتين أهوالا هائلة ، إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم ، و إذ قد كان هذا الحال

([1]) الكشاف ٤ / ٢٧٩ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٣٩٣ .

([2]) بحر العلوم ٣ / ٥٠٥ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٠١ .

([3]) تفسير جزء عم ١١٠ .

([4]) ينظر الكشاف ٤ / ٢٧٩ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٣ ، فتح القدير ٥ / ٤٨٦ ، روح المعانى ١٥ / ٤٤٧ .

الموقت بزمانه غير معلوم مداه ، كان التوقيت له ؛ إطماعـا في تعـيين وقـت حصوله ، إذ كانوا يسألون : متى هذا الوعد ؟ ثم توقيته بما هو مجهـول لهـم ؛ إبهاما آخر للتهويل والتحذير من مفاجأته ، و أبرز في صورة التوقيت ؛ للتشويق إلى البحث عن تقديره ، فإذا باء الباحث بالعجز عنه أخذ بحيطـة الاسـتعداد لحلوله بما ينجيه من مصائبه التي قرعت به الأسماع في آي كـثيرة " ([1]) وقـد نقلناه على طوله ؛ لأنه استنتاج جيد بصير بجريان المعاني في السورة .

ثانيا: حال الجبال مع القارعة (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)

ما من سبيل لنا إلى استكشاف ارتباط هذا التشبيه بسياقه إلا النظر في أشـباهه ، ونظائره من التشبيهات التي صورت إفناء الجبال عند قيام الساعة ، وقد ورد ذلك في سور متعددة يحسن أن نضعها متجاورة ؛ لأن هذا أعـون في النظـر و الاستنباط .

١ ــ قال : ــ تعالى (وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) (الواقعـة / ٥ ، ٦)

٢ ــ قال : ــ تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) (المزمل / ١٤)

٣ ــ قال : ــ تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا) (النبأ / ٢٠)

٤ ــ قال : ــ تعالى (يوم تكون السماء كالمهل وتكـون الجبـال كـالعهن) (المعارج / ٨ ، ٩)

٥ ــ قال : ــ تعالى (يوم ينفخ في الصور ففزع من في السـموات ومـن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١١ ، ٥١٢ .

مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون) (النمل / ٨٧ ، ٨٨)

٦ ـــ قال : ـــ تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا و لا أمتا) (طه / ١٠٥ : ١٠٧)

أضف إلى ما مضى تشبيه سورة القارعة ، فتكون هيئة إفناء الجبال لها تشبيهات سبعة فهى تملك على هذه الصور (هباء منبثا ـــ كثيبا مهـــيلا ـــ كـــالعهن ـــ كالعهن المنفوش ـــ قاعا صفصفا ـــ تمر مر السحاب ـــ سرابا) وحين ننظر فى المشبه به نرى لكل موضع خصوصية ليست للتشبيه الآخر ، وكل يلائم السياق الذى ورد فيه ، وليس من همى هنا أن أبين ذلك ، لكنى ذكرت هذه التشبيهات لأعول عليها فى النظر ، وحين نبصر المشبه به فى كل موضع لا نرى أدل علـــى الخفة ، وتفتيت الأجزاء ، وسهولة التطاير من العهن المنفوش ، وربما يظـــن أن الهباء المنبث أقرب إلى هذا ، نعم ، ولكنه لا يدل على الخفـــة دلالـــة العهـــن المنفوش عليها ، و لأن العهن المنفوش فيه ما أشرنا إليه كان هـــو الأولى بـــأن يقرن بتشبيه الناس بالفراش المبثوث ، فسمت جريان المعنى فى السورة هو الذى يطلبه ، وشئ آخر ـــ ربما لم توافقنى عليه ـــ ألا ترى أن الصوف يندف بالمقرعة ، وهذا شئ تستطيع إبصاره عند صناع الفرش ، ولك أن تلمح هذه الدقيقـــة بالنظر فى أقرب تشبيه إلى تشبيه سورة القارعة ، وهو تشبيه ســـورة المعـــارج (كالعهن) دون أن يتبع بوصف ، كما أتبع فى القارعة بـــ (المنفـــوش) ســـر الخصوصية إذن كامن فى هذا الوصف الدقيق ، وهو معلم ظاهر فى الدلالة على اختصاص السورة بهذا التشبيه ، وهى النمنمات الدقيقة التى تشير إلى خصائص

السورة الكريمة ، تأمل (المبثوث) (المنفوش) وهما لفظتان مختصتان بالسورة الكريمة .

ولعل سؤالا يرد هو : لماذا وضع تشبيه الناس ، وتشبيه الجبال فى قرن واحد ؟ لو راجعنا حال النزول الذى أوجزناه فى صدر السورة ، لرأينا هذا القرن ملائما أحوال المخاطبين حال النزول ، فهم أشد غطرسة ، و أقوى جبروتا من أى وقت آخر ، فكان الملائم أن يقرن القرآن الجبال بالناس ؛ ليضعوا أنفسهم فى هذه المقارنة ، وماذا تساوى عظمتهم بجنب عظمة الجبال ، والقرآن هنا يخاطب المكيين حال النزول ، وهم قوم تحيط بهم الجبال الوعرة فى كل جنب ، ويكثر الفراش فى الجبال ، ويكثر إيقاد النار بليل ، وهو حين إيقاد النار بليل يرون صورهم فى الفراش فى الذلة والضعف والحقارة ، ، وبالنهار ينظرون إلى ضخامة الجبال وشموخها ، فيذكرون حالها التى أخبر الله عنه ، فالقارعة تقرع آذانهم كلما اختلفت أنظارهم إلى هذين الأمرين ، ولعلك تبصر هنا أن القرآن حين قرن الجبال بالناس ، ذكر الجبال بما هو مثل فى التفتت والخفة على غرار وصف الناس حين النشر بما هو مثل فى الخفة والضعف والحقارة ، إن هذا لأمر عجيب لا يهدى إليه إلا إبصار الآيات فى نور أشباهها من الآيات الأخرى ، لنرى هذه الدقة المتناهية المعجزة فى اصطفاء الألفاظ والمعانى والتراكيب فى السورة الواحدة ، وجريان الكلام على نسيج واحد فى السورة .

هذا وقد ذكروا " أن الله جمع بين حال الناس ، وحال الجبال ؛ تنبيها على أن تلك القارعة أثرت فى الجبال العظيمة الصلبة حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالحساب ؟ ! " [1]

---

[1] ينظر مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٠٢ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

وقال البقاعى ـــ كاشفا ـــ عن المناسبة " ولما كانت الجبال أشد ما تكون عظم الرهبة بالإخبار بما يفعل بها ، فقال : ـــ تعالى (وتكون الجبال . . .) على مـــا هى عليه من الشدة والصلابة ، و أنها صخور راسخة " ([1]) وقـــد ذكـــر ابـــن عاشور أن جملة " (وتكون الجبال . . .) معترضة بين جملة (يوم يكون النـــاس كالفراش المبثوث) وجملة (فأما من ثقلت موازينه . . .) وهو إدماج لزيـــادة التهويل " ([2]) وهذا الاعتراض غير الاعتراض الاصطلاحى ، لكنـــه اعتـــراض تناسب كما لا يخفى ، وقد اصطفى العهن على الصوف ؛ لدلالة العهـــن علـــى الحال دون الصوف ؛ و لأنه أوجز ، لأن العهن فى كلام العرب هـــو الـــصوف المصبوغ ألوانا ([3])، وهو موافق لتنوع ألوان الجبال .

أحوال الناس عند الميزان وبعده

(فأما من ثقلت موازينه . . . إلى آخر السورة)

يكشف البقاعى عن مناسبة الآيات لما قبلها بقوله : ـــ " ولما كان اليـــوم إنمـــا يوصف لأجل ما يقع فيه ، سبب عن ذلك قوله : ـــ مفصلا لهم ـــ (فأما مـــن ثقلت . . . " ([4]) أى أن ما ذكر من أحوال اليوم بمثابة التمهيد فى جريان المعنى فى السورة ، وهذه الحلقة من المعنى الجارى فى السورة ، تمثل خاتمة القارعـــة و أثرها ، وقد ألمع ابن عاشور أيضا إلى أن هذه الآيات تفصيل للناس فى قوله: (

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥١٤ .

([2]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١٢ .

([3]) ينظر المفردات مادة (ع هـــ ن) .

([4]) نظم الدرر ٨ / ٥١٢ .

يوم يكون الناس . . .) وبين أنه عبر بالناس ؛ ليشمل أهل السعادة ، و أهل الشقاء " ([1])

و ألمح شيئا آخر أنه ذكر الميزان على وجه المقابلة ، وتأمل هذا الترتيب ثقل الميزان جاء الحديث عنه قبل الحديث عن خفة الميزان ، ألا ترى أنه الترتيب ذاته فى ثقل الناس ثم خفتهم ، كما عرفت من حال الفراش المبثوث ، وثقل الجبال ثم خفتها ، كما عرفت من تصوير الجبال . هذا شئ لمحته ، و أظنه يشير إلى سمت ترتيب المعانى فى السورة الكريمة ، و أن معانيها تتجه إلى هدف محدود ، هو إظهار تأثير القارعة .

وقد ذكر ما يقارب معنى هذه الآيات فى سورتين أخريين هما سورتا الأعراف و المؤمنون ، ويحسن أن نذكر هذه الآيات لنقف على ما اختصت به سورة القارعة . قال تعالى : ــ (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) (الأعراف / ٨ ، ٩) وقال : ــ تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) (المؤمنون / ١٠١ : ١٠٣) ولنا أن نلحظ هنا أن الآيات الثلاثة اتفقت فيما يلى : ــ

أولا : أنها بنيت بأسلوب الشرط ، وفيه ما فيه من إبراز الأمرين فى صورة الارتباط اللازم بين المقدمة والنتيجة ، ولو تدبرنا البيان القرآنى لرأينا أن النزوع إلى هذا الأسلوب يكون حال الجدل غالبا .

([1]) ينظر التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١٣ .

ثانيا : أن كلمة (ميزان) جاءت مجموعة لتناسب تنوع الأعمال .

ثالثا : أن التركيب فى فعل الشرط متحد فى الآيات الثلاثة (فمن ثقلت موازينه . . .) (ومن خفت موازينه . . .) وقد وقع الاختلاف فيما يلى : ـــ

أولا: جواب الشرط فى سورتى الأعراف والمؤمنون متحد فى بنائـــه ومعنـــاه (فأولئك هم المفلحون) وفى سورة القارعة اختلف جواب الـــشرط (فهـــو فى عيشة راضية) ولنا أن نبصر أن هذا الاختلاف كاشف عن مجئ الجواب متفقـــا مع جريان المعنى فى سورة القارعة ، وذلك أن سورة القارعة اجتزأت من كـــل شئ أوجزه ، كحال الناس عند النشر ، وحال الجبال عند التدمير ، ومعلوم أن العيشة الراضية ثمرة الفلاح ، فالتركيب هنا بنى على الإيجاز كأشباهه فى السورة الكريمة ، حيث إننا لو نظرنا لوجدنا أن ثقل الميزان يؤدى إلى الفلاح ، والفلاح يؤدى إلى العيشة الراضية ، و الإيجاز هو الملائم لمعنى السورة ، وهيئـــة جريانـــه فيها .

وشئ آخر ، هو أن هذا التركيب لاءم حال المخاطبين عند النزول ، فهم حـــين اشتطوا فى الإيذاء لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ و للمـــؤمنين ، ولمـــن ناصره من المشركين استخدموا التضييق فى العيشة وسيلة لـــذلك ، فخاطبـــهم القرآن الحكيم بجنس عملهم ، لأن الحال دلت على أنهم لا يفقهون هذه اللغة ، ولو قال هنا ، وفى ذلك الوقت : فأولئك هم المفلحون ، لما طابق الحال ، ولمـــا لاءم السياق ، لأنهم فعلوا ما فعلوا وهم لا يظنون أنهم خاســـرون ، بـــل هـــم يظنون أنهم هم المفلحون بما يعملون .

ثانيا : آيات القارعة اختصت بتصديرها بأما التفصيلية ، أما السورتان الأخريان ، فقد جاء التفصيل فيهما بدلالة السياق ، لا بدلالة نصية مثل سورة القارعة ،

وهو ما يؤدى إلى الدلالة على مزيد ارتباط بين الفريقين ؛ لأن زيادة المبنى تـــدل على زيادة المعنى على ما هو معروف ، وهو الملائم حال المخاطبين عند النزول ، وحال اتساق المعنى فى السورة ، و كأن القرآن العظيم يقول : بالرغم من هـــذا التفتيت والتشتيت الذى رأيته فى حالى الناس والجبال فإن الأمـــر ســـينتهى إلى تقسيم الناس إلى فريقين لا ثالث لهما .

ثالثا : أن عقاب من خفت موازينه مختلف فى كل سورة عـــن نظيرتهـــا وجـــه اختلاف ، ففى الأعراف والمؤمنون وصف عاقبتهم بالخسران (فأولئك الـــذين خسروا أنفسهم . . .) و اتفقت السورتان فى وصف العاقبة إلى هذا الحد ، ثم اختلفتا بعد ذلك ، فسورة الأعراف عنيت بذكر سبب الخسران (بمـــا كـــانوا بآياتنا يظلمون) تناسبا مع مطلعها (لتنذر به وذكرى للمؤمنين) (الأعراف / ٢) وسورة المؤمنون عنيت بما هو مترتب على خـــسرانهم (فأولئـــك الـــذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيهـــا كـــالحون) وكل وصف يذكر فى الثمرة المترتبة على الخسران ، هو دلالة بـــالمفهوم علـــى عظم قدر المفلحين ؛ تناسبا مع مطلع السورة الكريمة الذى عنى ببيـــان فـــلاح المؤمنين .

أما سورة القارعة فقد جاء الحديث فيها عن عاقبة من خفت موازينه مختلفا عما فى السورتين (فأمه هاوية و ما أدراك ما هيه نار حامية) وقوله : (فأمه هاوية) من خصائص السورة الكريمة ؛ تناسبا مع القرع ، فالقرع يكون أشد إهانة حين ينال من الرأس على تأويل (أمه) بالرأس ـــ كما سيأتى بيانه ـــ وذلـــك أردع للمخاطبين حال النزول ، و تأمل لطائف المناسبة فى (هاوية) و (الجبال) .

وقوله : (و ما أدراك ما هيه) دل على إيجاز بالحذف هو و ما بعده ، فالهويُّ لا يكون إلا من علو ، و كأن الكلام : فأمه هاوية فى النار . . . هى نار حامية ، وقوله : (و ما أدراك ما هيه) من التراكيب المختصة بالسورة الكريمة ؛ تناسبا مع تركيب القارعة (و ما أدراك ما القارعة) وهذا التركيب هو الملائم حال المخاطبين عند النزول ، فوق ملاءمته السياق ، لأن معناه أن هذه النار فوق طاقة البشر فى الوصف ، فكيف بمن يهوى فيها ؟ ! فكأن هذا العقاب هو أجمع ما فى القرآن حديثا عن الميزان و ما يترتب عليه ، ونلحظ أن الحديث جاء فى هذه السورة ، ملاءمة لحال ، ومطابقة للمقام .

وقفة أخرى مع لطائف النظم

قوله : (فأما من ثقلت موازينه) " كناية عن كونه بمحل الرضا من الله ـــ تعالى ـــ لكثرة حسناته لأن ثقل الميزان يستلزم ثقل الموزون . . . وقد شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف ، و أصالة الرأى بالوزن ونحوه ، وبضد ذلك يقال : فلان لا يقام له وزن " ([1]) وتفوت هذه اللطيفة لو قيل : فأما من كثرت حسناته فهو فى عيشة راضية ، لكن مجئ البناء على ما هو عليه أوحى ـــ من فعل الشرط ـــ بجواب الشرط ، وجاء جواب الشرط مجازا عقليا على ما عليه أكثر أهل العلم ([2]) و المجاز العقلى يصور نضارة هذا العيش " ورضى العيشة ، أى : النعمة يعنى أنها دائمة باقية تألف صاحبها و يألفها وتحبه ويحبها "

([1]) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١٣ .

([2]) ينظر بحر العلوم ٣ / ٥٠٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٢٥٦ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٤ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٣٩٣ ، وزادة على البيضاوى ٤ / ٦٨٩ ، الفتوحات الإلهية ٤ / ٥٧٩ ، روح المعانى ١٥ / ٤٤٩ .

([1]) فقد أشعر فعل الشرط بالرضا ، وصرح الجواب بتمام الرضا ، بإسناد الشئ إلى غير ما هو له ، فقد صارت العيشة هى التى تترضـــى صـــاحبها ، بـــدل أن يترضاها صاحبها ، و أصبح المرضى راضيا ، كل ذلك يدل على عظم الجزاء ، وغاية القبول عند الله .

وقد استنبط البقاعى ــ رحمه الله ــ لطيفة وراء إلحاق الهاء الدالة على الوحــدة فى عيشة فقال : " ولعله ألحق الهاء الدالة على الوحدة ، والمراد العيش ؛ لـــيفهم أنها على حالة واحدة فى الصفاء واللذة ، وليست ذات ألوان " ([2]) وربما يؤيده ما ذكرته المعاجم من أن العيش معناه : الحياة ، وما تكون به من مطعم ومشرب إلى آخره ، أما العيشة : فهى حالة الإنسان فى حياته فيقال : عاش فلان عيـــشة صدق ، وعيشة سوء إلى آخر ذلك ، فيكون ذكر العيشة دالا على حالة مـــن ثقلت موازينه فى الآخرة ، و أنها فوق أن تكون عيشة رضى ، ويكون إجـــراء الكلام على النسبة هو الوجه حينئذ ؛ ولذلك تأول العلماء (عيـــشة راضـــية) بأنها ذات رضا ([3]) ، كقولهم لابن و تامر .

ومنهم من جعل المجاز لغويا ، فقال : إن راضية فاعلة للرضـــى ، وهـــو اللـــين والانقياد ([4]) ، وهكذا جاء التعبير بهذا الثراء الذى يحتمل كل هذه التأويلات ، ومجمل القول أن من ثقلت موازينه سيلقى جزاء يتجاوز الخيال والمعقول ، كما جاء فى الحديث : أعددت لعبادى ما لا عين رأت ، و لا أذن سمعت ، و لاخطر

([1]) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ١٠٦ .

([2]) نظم الدرر ٨ / ٥١٤ .

([3]) مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٠٤ ، أنوار التنزيل ٢ / ٥٧٣ .

([4]) غرائب القرآن ٣٠ / ١٥٣ ، زادة على البيضاوى ٤ / ٦٨٩ ، فتح القدير ٥ / ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

على قلب بشر " ([1]) وهذا واضح فى الإسناد إلى ما لا يعقل ، ومعنى هذا أنها حياة خارجة عن الإلف والعادة تحاول أن تترضاه ، وتلين له ن وتنقاد إليه إلى آخر ذلك ، و لا يخفى أن جواب الشرط وقع جملة اسمية فهى عيشة راضية ثابتة مستمرة ، لا يطرأ عليه تغيير ، و لا تبديل ، وفى كل هذا بشارة للقلة المؤمنة حين النزول ، ولكل قلة مؤمنة عبر الزمن ، ، فلا ينظرن إلى عيش غير ثابت على حال ، و لا يشغلن النظر إليه عن عيشة راضية .

وقوله : (و أما من خفت موازينه) إشعار من أول الأمر بكونه بمحل السخط و الغضب ، ووقع جواب الشرط جملة اسمية أعقبها جملة جملتان تهولان من أمر العقاب ، وجواب الشرط أيضا جاء متناسبا مع جواب الشرط السابق فى دلالته على الدوام والثبوت ، و قد جاء محتملا تأويلات متعددة كلها فيما أرى تتآزر ، وتتعانق فى تصوير خطر عقاب من خفت موازينه ، و ماذا ننتظر من العقاب من الله لمن كان فى غاية السخط ؟ ! ويمكن إجمال تأويلات العلماء لقوله : ـــ تعالى (فأمه هاوية) فيما يلى : ـــ

١ ـــ أن (هاوية) من أسماء النار سميت بها لغاية عمقها ، وبعد مهواها ، وعبر عن المأوى بالأم ؛ لأن أهلها يأوون إليها كما يأوى الولد إلى أمه ، فهو من قبيل زيد أسد ، شبهت النار للعصاة بالأم ؛ لكونها تهوى بهم ، فتضمهم إلى نفسها ، كما تضم الأم الأولاد إليها ، وعليه يمكن أن يكون فى الكلام تهكم بهم ،

([1]) رواه البخارى فى صحيحه كتاب بدء الخلق حديث رقم (٣٠٠٥) و مسلم فى صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها و أهلها حديث رقم (٥٠٥٠) رواه الترمذى فى سننه كتاب تفسير القرآن حديث رقم (٣١٢١) و رواه ابن ماجة فى سننه كتاب الزهد حديث رقم (٤٣١٩) وورواه الإمام أحمد فى مسنده كتاب باقى مسند المكثرين حديث رقم (٧٧٩٦) و رواه الدارمى فى سننه كتاب الرقاق حديث رقم (٢٦٩٨)

ويكون ذلك من باب التشبيه المقلوب ، و الأصل الهاوية أمه ، لكنه جاء على القلب ، وهذا وارد أيضا على تأويل الهاوية بالباب الأسفل من النار .

٢ ــ أن الكلام على حذف مضاف ، والتقدير : أم رأسه ، والمعنى : فأم رأسه هاوية فى قعر جهنم ؛ لأنه يطرح فيها منكوسا ، وهذا وجه أيضا فى الكشف عن إهانته و إذلاله ، فلم يكف كونه فى عذاب دائم ، بل هو فى مستنقع الإهانة على أقبح هيئة أيضا ، وهو تأويل ناظر إلى معنى القارعة .

٣ ــ أن الكلام على سبيل الدعاء ، وهو معروف فى كلام العرب ، وعليه يكون استعمال الأم فى حقيقتها ، لأن العرب يكنُّون عن حال المرء بحال أمه فى الخير والشر ؛ لشدة محبتها ابنها ، فهى أشد سرورا بسروره ، و أشد حزنا بما يحزنه ، وقد ذكروا أن أعرابيا صلى وراء إمام فقرأ الإمام (واتخذ الله إبراهيم خليلا) فقال الأعرابى : لقد قرت عين أم إبراهيم ، ويقولون فى الشر هوت أمه " ([1]) ويمكن أن يستعمل مثل هذا الأسلوب فى غير الدعاء ، وذلك حين خروجه على خلاف الظاهر ، ويحدد المقصود منه بما يمليه سياقا الحال والمقال ([2]) ، هذا ، ويجوز أن يؤدى التركيب كل هذه الدلالات ، فيكون على هذه

([1]) ينظر جامع البيان ٣٠ / ١٨٢ ، الكشاف ٤ / ٢٨٠ ، مفاتيح الغيب ١٦ / ٦٠٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٧٢٥٧ ، نظم الدرر ٨ / ٥١٥ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٤٣ ، أنوار التتزيل ٢ / ٥٧٣ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٤ ، غرائب القرآن ٣٠ / ١٥٣ ، الشهاب على البيضاوى ٨ / ٣٩٣ ، و زادة على البيضاوى ٤ / ٦٨٩ ، فتح القدير ٥ / ٤٨٧ ، تفسير جزء عم ١١٢ ، روح المعانى ١٥ / ٤٤٩ ، التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١٣ : ٥١٥ .

([2]) ينظر فى ذلك خلاف الظاهر فى الدعاء على المخاطب دراسة بلاغية فى السنة النبوية د / إبراهيم صلاح الهدهد، نشر المؤلف ٢٠٠٠ م .

الحالة : يلقى منكوسا على رأسه فى الهاوية ، فيكون ذلك أذل له ، ويدعى عليه بذلك فى الدنيا ، ويتحقق الدعاء فى الآخرة .

وقد أشار البقاعى إلى أن فى هذه الآية احتباكا مع ما قبلها حيث قال : " الآية من الاحتباك ، ذكر العيشة أولا دليلا على حذفها ثانيا ، وذكر الأم ثانيا دليلا على حذفها أولا " (1) أى : أن تقدير المعنى : فأمه فى عيشة راضية ، و أما من خفت موازينه فأمه فى عيشة مبغضة ، و الآيات مبنية على ترغيب المؤمنين بذكر الثواب ، وترهيب الكافرين بذكر العقاب ، فذكر فى كل طرف ما يفى بغرضه ، فذكر فى الأول ما هو ألصق بالترغيب (عيشة راضية) وفى الطرف الثانى ذكر (فأمه هاوية) ؛ إمعانا فى الترهيب ، إذ مادام المأوى نفسه كذلك ، فالآوى إليه أشد عذابا ، وحذف عيشة مبغضة ؛ إشارة إلى أنها من سوئها لا تستحق أن تسمى عيشة " (2)

قوله : (وما أدراك ما هيه) الاستفهام للتهويل والتفظيع ؛ لبيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، و لا تدرى كنهها " (3) وقد سبق الحديث عن هذه الصيغة فى أول السورة ، وقد ذكروا أن الضمير يعود إلى الهاوية ، ووراء المجئ بهاء السكت هنا لطيفة ذكرها البقاعى ــ رحمه الله ــ حيث قال : ــ " وهاء السكت ؛ إشارة إلى أن ذكرها مما يكرب القلب ، حتى لا يقدر على الاسترسال فى الكلام ، أو إلى أنها مما ينبغى للسامع أن يقرع بهذا

---

(1) نظم الدرر ٨ / ٥١٥ .

(2) ينظر الاحتباك فى الذكر الحكيم مواقعه أسراره ٢٩٤ د / إبراهيم صلاح الهدهد نشر المؤلف ١٩٩٩ ، و الاحتباك هو : أن تحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، وتحذف من الثانى ما أثبت نظيره فى الأول.

(3) فتح القدير ٥ / ٤٨٧ .

الاستفهام عنها سمعه ، فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت ، ويصغى غاية الإصغاء " ([1]) وهو استنباط جيد ناظر إلى مطلع السورة الكريمة .

قوله : (نار حامية) المسند إليه محذوف هنا و الأصل : هى نار حامية ؛ زيادة تهويل لها ، وقد ذكروا أن هذه الجملة بيان وتقرير لجملة (و ما أدراك ما هيه) قالوا : " فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، و الإشعار بخروجها عن الحد والمعهود للتفخيم والتهويل " ([2]) قالوا : ووصف نار بـ (حامية) من قبيل التوكيد اللفظى ، لأن النار لا تخلو عن الحمى ، فوصفها به وصف ما هو من معنى لفظ (نار) فكان كذكر المرادف كقوله : ـ تعالى (نار الله الموقدة) وفى وصف النار بأنها حامية ؛ إشارة إلى أنها قد تناهى حرها ، و أن كل نار عرفتموها بجانبها ليست نارا ، وهكذا أبصرنا التراكيب فى جنب العقاب تكاثفت وتشابكت لإبراز قدر جرمهم فى حقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومناصريه ، وكان السبيل إلى ذلك هو تكثيف ، وتكثير العقاب المنبئ عن قدر الجرم الذى به استحقوا هذا العقاب .

خلو السورة من الأسماء الحسنى وملاءمته المقام

الذى أبصرته أن السورة نزلت فى حال اشتداد إيذاء المشركين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين ، ومن ناصره من قريش بصورة لم تحدث من قبل ، وقد استوجب ذلك غضب الله الشديد لما نال نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ و كأن السورة الكريمة رسالة كاشفة عن شدة الغضب ، وخلو السورة من اسم الغاضب أدل على شدة الغضب ، و أنهم أحقر من أن

([1]) نظم الدرر ٨ / ٥١٥ .

([2]) إرشاد العقل السليم ٩ / ١٩٤ ، روح المعانى ١٥ / ٤٤٩ .

يذكر اسمه بإزائهم حتى لو كان من أسماء الجلال ، وهم قوم أرباب بيـــان ، و أساطين لغة ، ويفقهون معنى خلو السورة من اسم من الأسماء الحـــسنى ، فهـــو خطاب المغاضب ، وقد رأينا ــ بمقارنة تراكيب السورة مع أشباهها فى الـــسور الأخرى ــ أنها شكلت حلقات قصوى فى تدمير الكون ، وحال النـــاس عنـــد النشر ، ومسألة الميزان ، واختيار القارعة اسما للقيامـــة ، وتكـــرره مـــرات فى السورة الكريمة ، فالسورة من مفتتحها هى خطاب المغاضب ، هذا ما أبـــصرته فى خلو السورة من الأسماء الحسنى .

تراكيب السورة تلائم الزمان كله .

ما من ريب أن هذا المقام الذى نزلت فيه السورة الكريمة يتكرر كـــثيرا عـــبر الزمان ، كما أخبر ــ صلى الله عليه وسلم ــ " يأتى على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر " ([1]) وما مـــن ريـــب فى أن أوليـــاء الله المستمسكين بحبله يلقون من ألوان العذاب ما يجلب غضب الله ؛ لـــذلك جـــاء الخطاب عاما (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) وجاء مفتتح السورة بأشـــد أسماء القيامة ، و أدله على إهانة أعدائه ، ولذلك حدد العلماء مقصد الـــسورة الكريمة بما يكشف عن فقههم ملاءمتها الزمان كله ، قال البقاعى : " مقصودها : إيضاح يوم الدين بتصوير ثوانى أحواله فى مبدئه ، ومآله ، وتقسيم الناس فيـــه إلى ناج وهالك " ([2]) وقد أشرنا فى تضاعيف التحليل فى مـــواطن كـــثيرة إلى ملاءمة تراكيب السورة الزمان كله ، واكتناز التعبير كل مستجدات الزمان .

([1]) رواه الترمذى فى سننه كتاب الفتن حديث رقم (٢١٨٦) .

([2]) نظم الدرر ٨ / ٥١٣ .

الخـــــاتمة

انتهى بى التطواف فى السور الكريمة ، و قد تبين لى بما لا يدع مجالا للـــشك أن علماءنا كانوا ينظرون إلى تراكيب الذكر الحكيم فى ضوء حال الـــنزول ، دون أن يهملوا النظر إلى تراكيب الذكر الحكيم فى ضوء ملاءمتها الزمان كله ، هذا ، و قد تبين لى أن هذه السور التى خلت من الأسماء الحسنى كانـــت كلـــها فى المراحل الأولى من الدعوة ، و التى كان المسلمون يلقون فيها أشنع ألوان الأذى ، لذلك جاء خطاب الكافرين وقتها خاليا من الأسماء الحسنى ؛ إعلانا للغضب ، و إيذانا بأشد الوعيد والتهديد ، و هذا من العجائب فكيف يكون عدم وجـــود اللفظ له دلالة لا ينهض بها ذكره ، و كل هذا مما يؤذن بأن القـــرآن العظـــيم مازال وسيظل هو الحقل الأوسع للدراسات البلاغية .

هذا ، و إنى أبرأ إلى الله من كل زلل ، راجيا إياه ـــ سبحانه ـــ أن يعفو عـــنى فيما لم يحالفنى التوفيق فيه ، و أن يجزينى عن جهدى خير ما جزى عبـــدا علـــى طاعة ، فبه ثقتى ، وعليه توكلى ، والحمد لله أولا و آخرا ، وصل يارب علـــى سيدنا محمد و على آله و صحبه و أمته .

المصادر والمراجع

١ــ أحكام القرآن للجصاص تحقيق عبد السلام شاهين ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٤.

٢ ــ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالى ط دار الشعب مصر دون تاريخ .

٣ ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .

٤ ــ أسباب النزول للواحدى النيسابورى ط دار الفكر بيروت ١٩٩٨ م .

٥ــ أنوار التنزيل و أسرار التأويل للقاضى البيضاوى ط الحلبى ١٣٨٨ هــ

٦ ــ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط مصطفى الحلبى ١٣٩٨ هــ

٧ ــ الأساس فى التفسير للشيخ سعيد حوى ط دار السلام بمصر ١٤٠٥ هــ

٨ ــ بحر العلوم لأبي الليث السمرقندى تحقيق الشيخ على معوض و آخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣ هــ

٩ ــ بصائر ذوى التمييز فى لطائف كتاب الله العزيز لمجد الدين الفيروز آبادى ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ١٣٨٣ هــ .

١٠ ــ البرهان فى تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفى تحقيق د / سعيد الفلاح ط جامعة قار يونس ١٩٨٨ م .

١١ ــ البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط دار التراث دون تاريخ .

١٢ ـــ البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى تحقيق أحمد عبد القادر عطا ، منشور باسم (أسرار التكرار فى القرآن) ط دار الاعتصام ١٩٨٧ م .

١٣ ـــ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط عيسى الحلبى بمصر دون تاريخ .

١٤ ـــ تفسير جزء عم للإمام عبده ط ثانية دار الشعب دون تاريخ .

١٥ ـــ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة تحقيق الأستاذ السيد صقر ط بيروت ١٩٨٧ م .

١٦ ـــ تناسق الدرر فى تناسب السور للسيوطى تحقيق أحمد عبد القادر عطا ط دار الاعتصام دون تاريخ .

١٧ ـــ تفسير البغوى للإمام أبى محمد الحسين الفراء تحقيق عبد السلام شاهين ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥ م .

١٨ ـــ تفسير الجلالين بهامش الفتوحات الإلهية ط عيسى الحلبى بمصر دون تاريخ .

١٩ ـــ التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية ١٩٨٤ م .

٢٠ ـــ التصوير البيانى د / محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة ١٤٠٠ هـــ .

٢١ ـــ التعريفات لمحمد بن على الجرجانى ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـــ .

٢٢ ـــ التفسير القيم لابن قيم الجوزية تحقيق محمد حامد الفقي ط مكتبة السنة المحمدية دون تاريخ .

٢٢ ـــ التفسير البيانى د / عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف ١٩٧٧ م .

٢٣ ــ التكرار بلاغة د / إبراهيم الخولى ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٩٣ م .
٢٤ ــ التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي تحقيق عبد الحميد صالح ط القاهرة ١٤١٠ هــ .
٢٥ ــ جامع البيان للطبرى ط دار الريان للتراث ١٤٠٧ هــ .
٢٦ ــ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ط ثالثة دار الغد العربى دون تاريخ .
٢٧ ــ حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضى البيضاوى ط بولاق دون تاريخ .
٢٨ ــ حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ط دار الفكر ١٣٩٧ هــ .
٢٩ ــ حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى ط تركيا دون تاريخ .
٣٠ ــ حركة المعنى فى سورة الفجر ــ دراسة بلاغية د / إبراهيم صلاح الهدهد ط دار الاتحاد التعاونى للطباعة ١٩٩٨ م
٣١ ــ الاحتباك فى الذكر الحكيم ــ مواقعه ــ أسراره د / إبراهيم صلاح الهدهد نشر المؤلف ١٩٩٩ م .
٣٢ ــ خزانة الأدب لابن حجة الحموى تحقيق عصام شعيتو ط دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٩١ م .
٣٣ ــ خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ط و هبة ١٩٨٠ م .
٣٤ ــ دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر تحقيق محمد محمود شاكر ط الخانجى١٩٨٤ م .
٣٥ ــ دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى ط وهبة ١٤٠٨ هــ .

٣٦ ـــ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ط الأنوار المحمدية دون تاريخ.
٣٧ ـــ روح المعانى للآلوسى ط بيروت ١٤٠٥ هـــ .
٣٨ ـــ الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية لأبى حاتم الرازى تحقيق حسين فضل الله ط الرسالة ١٩٥٨ م
٣٩ ـــ سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط الريان دون تاريخ .
٤٠ ـــ سنن أبى داود للإمام أبى داود ط دار الحديث ١٩٨٨ م .
٤١ ـــ سنن الدارمى ضمن برنامج كمبيوتر (الحديث الشريف) إصدار شركة صخر .
٤٢ ـــ سنن النسائى للإمام النسائى ط الريان ١٩٨٧ م .
٤٣ ـــ سنن الترمذى ضمن برنامج كمبيوتر (الحديث الشريف) إصدار شركة صخر .
٤٤ ـــ اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي تحقيق عبد المحسن المبارك ط بيروت ١٩٨٦ م .
٤٥ ـــ صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء للقلقشندى تحقيق د / على يوسف طويل ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ م .
٤٦ ـــ صحيح البخارى للإمام البخارى ط دار القلم بيروت ١٩٨٧ م.
٤٧ ـــ صحيح مسلم للإمام مسلم ط دار الحديث تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ١٩٩١ م .
٤٨ ـــ العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق محمد عبد القادر شاهين ط المكتبة العصرية بيروت ١٤١٩ هـــ .

٤٩ ــ غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين النيسابورى بهامش الطبرى ط دار الريان للتراث ١٤٠٧ هــ .

٥٠ ــ فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ط دار الشروق ١٤١٧ هــ .

٥١ ــ فتح القدير للشوكانى ط دار المعرفة بيروت دون تاريخ .

٥٢ ــ الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ط عيسى الحلبى بمصر دون تاريخ .

٥٣ ــ الفرائض و شرح آيات الوصية للسهيلى تحقيق د / محمد البنا ط جامعة قار يونس ١٤٠٠ هــ .

٥٤ ــ قراءة فى الأدب القديم د / محمد أبو موسى ط دار الفكر ١٩٨٧ م .

٥٥ ــ الكتاب لسيبويه تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون نشر الخانجى ١٤٠٨ هــ .

٥٦ ــ الكشاف للزمخشرى ط مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩٢ هــ .

٥٧ ــ الكليات لأبى البقاء الكفوى تحقيق د / عدنان درويش و آخر ط مؤسسة الرسالة ١٤١٣ هــ .

٥٨ ــ الكامل فى التاريخ لابن الأثير تحقيق عبد الله القاضى ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٥ م .

٥٩ ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل ضمن برنامج كمبيوتر (الحديث الشريف) إصدار شركة صخر.

٦٠ ــ مسائل الرازى و أجوبتها للرازى الحنفى ط مصطفى الحلبى بمصر دون تاريخ .

٦١ ــ مفاتيح الغيب للفخر الرازى ط دار الغد العربى ١٤٠٨ هــ .

٦٢ ــ موسوعة له الأسماء الحسنى للشرباصى تقديم د / عبد الستار زموط ط دار الجيل ١٤٠٨ هــ .
٦٣ ــ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لبرهان الدين البقاعى تحقيق د / عبد السميع حسنين ط الرياض ١٤٠٨ هــ .
٦٤ ــ ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الثقفى تحقيق د/ سعيد الفلاح ط دار الغرب الإسلامى دون تاريخ .
٦٥ــ موطأ الإمام مالك ضمن برنامج كمبيوتر (الحديث الشريف) إصدار شركة صخر .
٦٦ ــ المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق سيد كيلانى ط الحلبى ١٣٨١ هــ .
٦٧ ــ المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لأبى حامد الغزالى ط قبرص ١٤٠٧م
٦٨ ــ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هــ .
٦٩ ــ النظم الفنى فى القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط مكتبة الآداب دون تاريخ .
٧٠ ــ النهاية فى غريب الحديث و الأثر لابن الأثير تحقيق د / محمود الطناحى ط بيروت دون تاريخ.

الملاحـــــــــق

ملحق رقم (١) معانى الأسماء الحسنى الواردة فى القرآن الكريم

الله : هذا الاسم مستول على الأسماء كلها ـــ أعنى الله عز وجـــل ـــ و إليـــه تنسب الأسماء كلها ، وهو الإله معرفا بالألف واللام ، فالألف هو مـــن ســـنخ الكلمة ؛ لأنه فى الأصل إله ، و الألف أدخلت فيه مع اللام للتعريـــف ، فلمـــا أدخلت فيه ألف التعريف سقطت الألف الأصلية ، وتركت الهمزة لكثـــرة مـــا يجرى على ألسنتهم ، و أدغمت لام المعرفة فى اللام التى لقيتـــها ، وفخمـــت و أشبعت حتى أطبق اللسان بالحنك ؛ لفخامة ذكره ـــ تبارك وتعالى ـــ ثم صارت الألف واللام فيه كأنهما من سنخ الكلمة ، فقيل : الله ، وكان الاسم مخصوصا له ـــ جل ذكره " ([١])

الرحمن والرحيم : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، وهما مـــن أبنيـــة المبالغـــة ، والفرق بينهما أن الرحمن أخص من الرحيم ، و لذلك يسمى به غير الله ـــ عـــز وجل ـــ والرحيم قد يطلق على غيره ، وعليه فالمفهوم من الرحمن نـــوع مـــن الرحمة ، هى أبعد من مقدورات العباد ، وهى ما يتعلق بالسعادة الأخروية ، وقد ذكروا أيضا أن الرحمن أعم و أشمل من الرحيم ، فـــالرحمن : هـــو ذو الرحمـــة الشاملة للخلق ، والرحيم خاص بالمؤمنين " ([٢])

السلام : معناه : الذى تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، و أفعالـــه عن الشر " ([٣])

([١]) الزينة فى الكلمات العربية الإسلامية ١٢ ، ١٣ .

([٢]) ينظر النهاية لابن الأثير ٢ / ٢١٠ ، بصائر ذوى التمييز ٣ / ٣٥ ، ٥٤ ، والزينة ٢٣ .

([٣]) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ٦٩ ، ٧٠ لسان العرب مادة (س ل م)

الشهيد : أى الذى لا يغيب عنه شئ " ([1])

الحكيم و الحكم : هو بمعنى الحاكم وهو القاضى ، أو هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها ، وقيل : الحكيم ذو الحكمة ، والحكمة : عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وهو الحكيم فى الآخرة ، و لا حكم غيره " ([2])

الحليم : هو الذى يشاهد معصية العصاة ، ويرى مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزه غضب ، و لا يعتريه غيظ ، و لا يحمله على المسارعة إلى الانتقام " ([3])

الحميد : هو فعيل بمعنى مفعول ، وهو المحمود المثنى عليه ، وهو الحميد بحمده لنفسه أزلا ، وبحمد عباده له أبدا ، ويرجع هذا إلى صفات الله الجلال والعلو والكمال " ([4])

الرؤوف : معناها : الرحيم لعباده العطوف عليهم بألطافه المتناهى فى الرحمة بعباده لا راحم أرحم منه ، و لا غاية وراء رحمته ، و الرأفة شدة الرحمة " ([5])

البديع : هو الخالق المخترع لا عن مثال سابق ، وسمى بذلك ؛ لإبداعه الأشياء ، و إحداثه إياها " ([6])

([1]) التفسير القيم ١٩٠ .

([2]) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ٤٤ ، المقصد السنى ١٢٠ ، والتفسير القيم ٣١ ، لسان العرب مادة (ح ك م)

([3]) المقصد الأسنى ١٠٣ ، اشتقاق أسماء الله الحسنى ٩٦ ، موسوعة له الأسماء الحسنى ١ / ١٨٢ .

([4]) المقصد الأسنى ١٣٠ ، النهاية لابن الأثير ١ / ٤٣٦ ، والتفسير القيم ٣٥ .

([5]) المقصد الأسنى ١٤٠ ، النهاية لابن الأثير ٢ / ١٧٦ ، الصحاح واللسان مادة (ر أ ف)

([6]) النهاية لابن الأثير ١ / ١٠٦ ، لسان العرب (ب د ع)

المتكبر : هو الذى يرى الكل حقيرا بالإضافة إلى ذاتـه ، و لا يـرى العظمـة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد ، و لا يتصور ذلـك على الإطلاق إلا لله تعالى " ([1])

الولى : هو الناصر المحب ، مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها " ([2])

الكريم : هو الذى إذا قدر عفا ، و إذا وعد وفى ، و إذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ، و لايبالى كم أعطى ، ولمن أعطى ، و إن وقعت حاجـة إلى غـيره لا يرضى ، و إذا جفا عاتب ، و لا يضيع من لاذ بـه ، والتجـأ ، ويغنيـه عـن الوسائط والشفعاء " ([3])

الشاكر والشكور : هو الذى يجازى بيسير الطاعات كثير الدرجات ، والفرق بين الشاكر والشكور أن الشاكر : من يشكر على الرخاء ، والـشكور : مـن يشكر على البلاء ، وقيل : الشاكر من يشكر على العطاء ، والـشكور : مـن يشكر على المنع ، و إذا وصف البارى بالشكور ، فالمراد : إنعامه على عباده " ([4])

السميع : هو الذى لا يعزب عن إدراكه مسموع ، و إن خفى ، فهو يـسمع السر والنجوى ، بل ما هو أدق من ذلك و أخفى ، ويـدرك دبيـب النملـة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء " ([5])

([1]) المقصد الأسنى ٧٥ ، إحياء علوم الدين ٣ / ٣٤٥ .

([2]) المقصد الأسنى ١٢٩ ، ١٣٠ ، لسان العرب (و ل ى)

([3]) الزينة ١٠٥ ، لسان العرب مادة (ك ر م)

([4]) المقصد الأسنى ١٠٥ ، ١٠٦ ، والتوقيف على مهمات التعاريف لابن المناوى ٢٠٧ .

([5]) النهاية لابن الأثير ٢ / ٤٠١ ، المقصد الأسنى ٩٠ ، واللسان (س م ع)

العلى والمتعالى : العلى : الذى ليس فوقه شئ فى المرتبة والحكم ، والمتعـــالى : الذى جل عن إفك المفترين ، وعلا شأنه ، وقيل : جل عن كل وصف وثنـــاء ، وهو فاعل من العلو ، وقد يكون بمعنى العالى " ([1])

العزيز : هو الممتنع فلا يغلبه شئ ، وهو الخطير الذى يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه " ([2])

الغفور والغفار : الغفور : كثير المغفرة ، وهى صيانة العبد عما استحقه مـــن العقاب بالتجاوز عن ذنوبه ، والغفار أبلغ فيه لزيادة بنائه ، وقيل : المبالغة فيـــه من جهة الكيفية ، وفى الغفار من جهة الكمية " ([3])

اللطيف : أى العالم بخفايا الأمور ودقائقها ، أو هو البر بعباده المحسن إلى خلقـــه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف ، فعلى الأول يكون من صـــفات الـــذات ، وعلى الثانى يكون من صفات الأفعال " ([4])

الواحد : هو الذى ليس قبله شئ " ([5])

الأحد : هو اسم أكمل من الواحد ، وقد وصف ـــ سبحانه ـــ نفسه فى كتابه بالواحدية والأحدية " ([6])

([1]) النهاية لابن الأثير ٣ / ٢٩٣ .

([2]) النهاية لابن الأثير ٣ / ٣٢٨ ، والمقصد الأسنى ٧٣ ، اللسان (عز ز)

([3]) الكليات لأبى البقاء الكفوى ٦٦٦ .

([4]) الكليات ٧٩٧ .

([5]) الزينة ٣٢ .

([6]) السابق ٣٣ ، ٣٤ .

الصمد : السيد المقصود ، الذى يصمد إليه الخلائق فى حـــوائجهم ، أو هـــو الذى لا جوف له " ([1])

الأول : الذى قبل كل شئ " ([2])

الآخر : الذى لا غاية ولا نهاية له " ([3])

الظاهر : الغالب ، أو أنه سمى بالظاهر لظهور صنعته " ([4])

الباطن : الخفى الذى لا تدركه الخلائق بكيفيته ، أو تحيط بـــه أوهـــامهم ، أو تبلغه صفاتهم ، أو تدركه عقولهم " ([5])

الخالق والخلاق : الخالق : معناه : أنه ابتدأ الخلق أول مرة ، والخلاق من شأنه أن يخلق إلى آخر الدهر حتى يتم له الخلق ، و إنما سمى نفسه ـــ عـــز وجـــل ـــ خالقا ؛ لأنه قدر الأشياء كلها ثم أمضاها ، فهو الخـــالق فى ابتدائـــه الخلـــق ، والخلاق فى تتميمه إياه إلى آخر الدهر بعلم وحكمة وصلاح " ([6])

القادر والقدير : الغالب القاهر المتمكن من الشئ ، وقدير ، فعيـــل بمعـــنى فاعل "([7])

([1]) الزينة ٤٣ .

([2]) السابق ٤٣.

([3]) السابق ٤٣ .

([4]) السابق ٤٩ .

([5]) السابق ٤٩ .

([6]) السابق ٥٢ ، ٥٣ .

([7]) السابق ٥٤ ، ٥٥ .

البارئ : هو من براه أى : سواه وعدله ؛ لذلك قال ربنا : (هـو الله الخـالق البارئ المصور) (الحشر / ٢٤) ففرق بين الصفتين ؛ لأنه خلـق الخلـق أولا فقدره ، ثم براه أى : سوّاه وعدّله " [١]

المصور : المتم الخلق ، والمقيم له صورة سوية ، فالمـصور : هـو خـالق الصور "[٢]

المؤمن : أصله من الأمان ، كأنه آمن عباده أن يظلمهم ، أى : أعطاهم الأمان على ذلك " [٣]

المهيمن : هو الشهيد على كل نفس بما كسبت المطلع على ضمائرهم ، وهـو الرقيب الحافظ الأمين " [٤]

الجبار : المرتفع عن أن يتناوله أحد ، أو يدركه أحد بحد أو صفة ، فلا يقـدر مظلوم أن يرفع إليه ظلامته ، ويتظلم من ظلم فى الدنيا ، بل أخر الحكـم بـين عباده إلى يوم الجزاء فهو الجبار على الحقيقة الذى فات أيدى المتناولين ، وهـو الجبار : الذى جبر الخلائق فنعتهم "[٥]

القدوس : المنزه عن الشريك " [٦]

الحى : الدائم الذى لا يفنى "[٧]

---

[١] الزينة ٥٦ .

[٢] السابق ٥٩ : ٦٢ .

[٣] السابق ٧٠ .

[٤] السابق ٧٥ .

[٥] السابق ٨٤

[٦] السابق ٩٢ .

[٧] السابق ٩٤ .

القيوم : القيام القائم على كل شئ " ([1])

الوهاب : الواهب هو الذى لم يبخل على خلقه ، فوهب لكل ما يحتاج إليـــه ، والوهاب الذى يهب كثيرا " ([2])

الودود : هو من الود والمودة ، الوُصلة على محبة ، والودود فيه قولان : فعول بمعنى مفعول ، مثل هيوب بمعنى مهيب ، ويكون فعيل بمعنى فاعل ، مثل غفـــور بمعنى غافر ، ويحتمل المعنيين هاهنا جميعا " ([3])

المجيد : هو مأخوذ من المجد ، وهو الجلالة والعظمة والشرف "([4])

الملك ، والمالك : كلها مشتقة من الُملك والمِلك "([5])

الخبير : العالم بالشئ ، فالله ـــ تعالى ـــ خبير بالأشياء كلها ، لا يخفى عليه منها شئ "([6])

العظيم : إنما قيل : جليل عظيم لأنه خلق الخلق الجليل العظيم ، وعلمنا أنـــه أجل و أعظم مما خلق ، و العظيم فوق الكبير ، والعظيم يدل علـــى القـــرب ، والعلى يدل على البعد "([7])

البر : من البر وهو التوسع فى فعل الخير "([8])

([1]) الزينة ٩٥ .

([2]) السابق ١٠٧ .

([3]) السابق ١١٦ .

([4]) السابق ١١٤ .

([5]) السابق ٩٩

([6]) السابق ١٠٨

([7]) الزينة ١٠٩

([8]) المفردات ٤٠

التواب : الذى يكثر قبول توبة عباده حالا بعد حال "([1])

البصير : هو الذى يشاهد الأشياء كلها ، ظاهرها ، وخافيها بغـــير جارحـــة ، والبصر فى حقه عبارة عن الصفة التى ينكشف بها كمال نعوت المبصرات "([2])

النصير : من النصر وهو إعانة المظلوم ([3])

المجيب : هو الذى يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول ، وهو اسم فاعل من أجاب يجيب "([4])

الحق : هو موجد الشئ ، بسبب ما تقتضيه الحكمة "([5])

المحيط : الحافظ من جميع الجهات "([6])

الرازق والرزاق : هو خالق الرزق ، ومعطيه ، والمسبب له ، والرزاق لا يقال

([1]) المفردات ٧٦

([2]) اللسان (ب ص ر) والكليات ٦٣١

([3]) اللسان (ن ص ر)

([4]) اللسان (ج و ب)

([5]) المفردات ١٢٥

([6]) السابق ٣٦

إلا لله تعالى "[1]

الرقيب : الحافظ الذى لا يغيب عنه شئ فعيل بمعنى فاعل "[2]

الكبير : العظيم الجليل "[3]

الوكيل : فعيل بمعنى المفعول ، أى : المعتمد عليه "[4]

العليم : أى العالم بما كان ، وما يكون قبل كونه ، وبما يكون ، ولما يكون بعد قبل أن يكون ، لم يزل عالما ، و لايزال عالما بما كان وما يكون ، ولا يخفى عليه خافية فى الأرض و لا فى السماء ، وفعيل من أبنية المبالغة "[5]

الغنى : هو الذى لا يحتاج إلى أحد فى شئ ، وكل أحد محتاج إليه " [6]

المقتدر : من اقتدر ، وهو أبلغ من القادر والقدير " [7]

القهار والقاهر : هو الغالب جميع الخلق والقهار للمبالغة " [8]

الهادى : هو الذى بصر عباده ، وعرفهم طريق معرفته ، وهدى كل مخلوق إلى ما لابد له منه فى بقائه ، ودوام وجوده " [9]

---

[1] السابق ١٩٤

[2] اللسان (ر ق ب)

[3] اللسان (ك ب ر)

[4] المفردات ٥٣١ .

[5] اللسان (ع ل م)

[6] اللسان (غ ن ى)

[7] اللسان (ق د ر)

[8] اللسان (ق هـ ر)

[9] اللسان (هـ د ى)

الواسع : هو الذى وسع رزقه جميع خلقه ، ووسعت رحمته كل شئ ، وغناه كل فقر ، وقال ابن الأنبارى : الواسع من أسماء الله الكثير العطاء ، الذى يسع لما يسأل ، ويقال : الواسع المحيط بكل شئ من قوله : (وسع كل شئ علما) "[1]

المقيت : الحافظ "[2]

العفو : هو فعول من العفو ، وهو التجاوز عن الذنب ، وترك العقاب عليه ، و أصله المحو والطمس ، وهو من أبنية المبالغة " [3]

المتين : هو ذو الاقتدار والشدة ، وهو القوى الشديد الذى لا يلحقه فى أفعاله مشقة ، و لا كلفة و لا تعب ، والمتانة : الشدة والقوة ، فهو من حيث إنه بالغ القدرة تامها قوى ، ومن حيث إنه شديد القوة متين "[4]

الحسيب : هو الكافى ، فعيل بمعنى مفعل من أحسبنى الشئ إذا كفانى "[5]

المولى : هو الولى ، وهو الناصر المتولى لأمور العالم ، والخلائق القائم بها " [6]

الأعلى : هو الله الذى هو أعلى من كل عال ، و سمه الأعلى ، أى صفته أعلى الصفات " [7]

---

[1] الزينة ١٠٥ ، و اللسان (و س ع)

[2] اللسان (م ق ت)

[3] السابق (ع ف و)

[4] السابق (م ت ن)

[5] السابق (ح س ب)

[6] لسان العرب (ولى)

[7] اللسان (علا)

الفتاح : هو الذى يفتح أبواب الرزق و الرحمة لعباده ، وقيل معناه الحاكم بينهم " ([1])

القوى : هو الذى يغلب كل شئ ، و لا يغلبه شئ " ([2])

الحفيظ والحافظ : من صفات الله ـــ عز وجل ـــ الذى لا يعزب عن حفظه الأشياء كلها مثقال ذرة فى السموات و الأرض ، وقد حفظ خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر ، وقد حفظ السموات و الأرض بقدرته " ([3])

المحيى : أى واهب الحياة لكل شئ ، وما زال قادرا على ذلك ثابتا له هذا الوصف و لا يزال " ([4])

ذو الجلال و الإكرام : أى : ذو العظمة التى لا ترام ، وهو صفة ذاته التى تقتضى إجلاله عن كل ما لا يليق به ، و ذو الإحسان العام ، وهو صفة فعله " ([5])

اللهم : معناه : يا الله ، والميم المشددة فى آخره عوض عن ياء النداء " ([6])

([1]) اللسان (فتح)

([2]) نظم الدرر ٣ / ٢٣٠ .

([3]) اللسان (حفظ)

([4]) نظم الدرر ٦ / ٦٤٠ .

([5]) نظم الدرر ٧ / ٣٨٥ .

([6]) اللسان (لهم)

ملحق رقم (٢) : أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم وعدد مرات ورودها فى كل سورة

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	الله ٢٧٢٩	ذو الجلال و الإكرام ٢	اللهم ٥	البر ١	البصير ٥٢	المتين ١	التواب ١١	الجبار ١	المتكبر ١	النصير ٢٤
الفاتحة	١									
البقرة	٢٨١				٥		٤			٢
آل عمران	٢٠٩		١		٤					
النساء	٢٢٩				٢		٢			٧
المائدة	١٤٧		١		١					
الأنعام	٨٧				١					
الأعراف	٦١									
الأنفال	٦٦		١		٢					١
التوبة	١٦٩						٢			٢
يونس	٦١		١							
هود	٣٨				٢					
يوسف	٤٤				٢					
الرعد	٣٤				١					
إبراهيم	٣٧									
الحجر	٢									
النحل	٨٤									
الإسراء	١٠				٤					٢
الكهف	١٦									
مريم	٨									

طه	٦				٢					
الأنبياء	٦									
الحج	٧٥				٢					٢
المؤمنون	١٣									
النور	٨٠						١			
الفرقان	٨				١					١
الشعراء	١٣									
النمل	٢٧									
القصص	٢٧									
العنكبوت	٤٢									١
الروم	٢٤									
لقمان	٣٢				١					
السجدة	١									
الأحزاب	٩٠				١					
سبأ	٨				١					٢
فاطر	٣٦				٣					١
يس	٣									
الصافات	٢٥									
ص	٣									
الزمر	٦٤		١							
غافر	٤٧				٤					
فصلت	١١				١					
الشورى	٣٢				٢					٢
الزخرف	٣									

الدخان	٣									
الجاثية	١٨									
الأحقاف	٢١									
محمد	٢٢									
الفتح	٣٩				١					١
الحجرات	٢٧				١		١			
ق	١									
الذاريات	٣					١				
الطور	٣			١						
النجم	٦									
القمر										
الرحمن		٢								
الواقعة										
الحديد	٣٢				١					
المجادلة	٤٠				١					
الحشر	٢٩							١	١	
الممتحنة	٢١				١					
الصف	١٧									
الجمعة	٢٢									
المنافقون	١٤									
التغابن	٢٠				١					
الطلاق	٢٥									
التحريم	١٣									
الملك	٣				١					

القلم										
الحاقة	١									
المعارج	١									
نوح	٧									
الجن	١٠									
المزمل	١١									
المدثر	٣									
القيامة										
الإنسان	٥				١					
المرسلات										
النبأ										
النازعات	١									
عبس										
التكوير	١									
الانفطار	١									
المطففين										
الانشقاق	١				١					
البروج	٣									
الطارق										
الأعلى	١									
الغاشية	١									
الفجر										
البلد										
الشمس	٢									

الليل										
الضحى										
الشرح										
التين	١									
العلق	١									
القدر										
البينة	٣									
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة	١									
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر	٢						١			
المسد										
الإخلاص	٢									
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها في كل سورة									
	الأحد ١	المجيب ١	المحيي ٢	الحفيظ ٣	الحق ٩	الحليم ١١	المحيط ٩	الكبير ٥	الوكيل ١٣	الصمد ١
الفاتحة										
البقرة						٣	١			
آل عمران						١	١		١	
النساء						١	٢		٣	
المائدة						١				
الأنعام					١				١	
الأعراف										
الأنفال							١			
التوبة										
يونس					٢					
هود		١		١			٢		١	
يوسف										
الرعد								١		
إبراهيم										
الحجر										
النحل										
الإسراء						١			٢	
الكهف					١					
مريم										
طه										

الأنبياء										
الحج					٢	١		١		
المؤمنون					١					
النور					١					
الفرقان										
الشعراء										
النمل										
القصص									١	
العنكبوت										
الروم			١							
لقمان					١			١		
السجدة										
الأحزاب						١			٢	
سبأ				١				١		
فاطر						١				
يس										
الصافات										
ص										
الزمر									١	
غافر								١		
فصلت			١				١			
الشورى				١						
الزخرف										
الدخان										

الجاثية										
الأحقاف										
محمد										
الفتح										
الحجرات										
ق										
الذاريات										
الطور										
النجم										
القمر										
الرحمن										
الواقعة										
الحديد										
المجادلة										
الحشر										
الممتحنة										
الصف										
الجمعة										
المنافقون										
التغابن							١				
الطلاق										
التحريم										
الملك										
القلم										

الحاقة										
المعارج										
نوح										
الجن										
المزمل									١	
المدثر										
القيامة										
الإنسان										
المرسلات										
النبأ										
النازعات										
عبس										
التكوير										
الانفطار										
المطففين										
الانشقاق										
البروج							١			
الطارق										
الأعلى										
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل										

الضحى										
الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص	١									١
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	الحكيم ٩٧	الحميد ١٧	الحى ١٤	الخبير ٤٥	الخلاق ٢	اللطيف ٧	الولى ١٤	الرحمن ٥٧	الرزاق ١	الرقيب ٣
الفاتحة								٢		
البقرة	٧	١	١	٢			١	١		
آل عمران	٥		٣	٢			٢			
النساء	١٢	١		٤			٢			١
المائدة	٢			١			١			١
الأنعام	٥		٢	٣		١	١			
الأعراف							٢			
الأنفال	٥									
التوبة	٨			١						
يونس	١		٢							
هود	١	١		٢						
يوسف	٣					١	١			
الرعد								١		
إبراهيم	١	٢								
الحجر	١				١					
النحل	١									
الإسراء				٣				١		
الكهف										
مريم								١٦		
طه			١					٤		

الأنبياء			١					٤		
الحج	١	٢		١		١				
المؤمنون										
النور	٤			٢						
الفرقان			١	٢				٥		
الشعراء								١		
النمل	٢			١				١		
القصص										
العنكبوت	٢									
الروم	١		٢							
لقمان	٣	٢		٣		١				
السجدة										
الأحزاب	١					١				١
سبأ	٢	١		١						
فاطر	١	١		٢						
يس	١				١			٤		
الصافات										
ص										
الزمر	١									
غافر	١		١							
فصلت	١	١						١		
الشورى	٢	١		١		١	٢			
الزخرف	٢							٧		
الدخان	١									

الجاثية	٢						١			
الأحقاف	١									
محمد										
الفتح	٣			١						
الحجرات	١			١						
ق								١		
الذاريات	١								١	
الطور										
النجم										
القمر										
الرحمن								١		
الواقعة										
الحديد	١	١		١						
المجادلة				٣						
الحشر	٢			١				١		
الممتحنة	٢	١								
الصف	١									
الجمعة	١									
المنافقون				١						
التغابن	١	١		١						
الطلاق										
التحريم	١			١						
الملك				١		١		٤		
القلم										

الحاقة										
المعارج										
نوح										
الجن										
المزمل										
المدثر										
القيامة										
الإنسان	١									
المرسلات										
النبأ								٢		
النازعات										
عبس										
التكوير										
الانفطار										
المطففين										
الانشقاق										
البروج		١								
الطارق										
الأعلى										
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل										

الضحى										
الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات				١						
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص										
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	الشاكر ٢	الشكور ٢	الرحيم ١٢٥	الرازق ٦	مالك الملك١	المولى ١٢	السميع ٤٦	الشهيد ١٨	المصور ١	العظيم ٥
الفاتحة			٢							
البقرة	١		١٢			١	٧			١
آل عمران			٣		١	١	٤	١		
النساء	١		١١				٣	٣		
المائدة			٥	١			١	١		
الأنعام			٣			١	٢	١		
الأعراف			٢				١			
الأنفال			٢			٢	٤			
التوبة			٩			١	٢			
يونس			١			١	١	٢		
هود			٢				١			
يوسف			٢				١			
الرعد										
إبراهيم			١				١			
الحجر			١	١						
النحل			٦							
الإسراء			١				١	١		
الكهف										
مريم										
طه										
الأنبياء							١			
الحج			١	١		٢	٢			
المؤمنون				١						
النور			٥				٢			

الفرقان			٢							
الشعراء			٩				١			
النمل			٢							
القصص			١							
العنكبوت							١	١		
الروم			١							
لقمان							١			
السجدة			١							
الأحزاب			٦					١		
سبأ			١	١			١	١		
فاطر										
يس			٢							
الصافات										
ص										
الزمر			١							
غافر							٢			
فصلت			٢				١	١		
الشورى		١	١				١			١
الزخرف										
الدخان			١				١			
الجاثية										
الأحقاف			١					١		
محمد						١				
الفتح			١					١		
الحجرات			٣				١			
ق										
الذاريات										
الطور			١							

النجم										
القمر										
الرحمن										
الواقعة										١
الحديد			٢							
المجادلة			١				١	١		
الحشر			٢						١	
الممتحنة			٢							
الصف										
الجمعة				١						
المنافقون										
التغابن		١	١							
الطلاق										
التحريم			١							
الملك										
القلم										
الحاقة										٢
المعارج										
نوح										
الجن										
المزمل			١							
المدثر										
القيامة										
الإنسان										
المرسلات										
النبأ										
النازعات										
عبس										

التكوير										
الانفطار										
المطففين										
الانشقاق										
البروج								١		
الطارق										
الأعلى										
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل										
الضحى										
الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										

الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص										
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	المتعال	الهادى	الخالق	الحافظ	المهيمن	المؤمن	السلام	الواسع	البارى	المقيت
	١	٢	٨	١	١	١	١	٧	٣	١
الفاتحة										
البقرة								٤	٢	
آل عمران								١		
النساء										١
المائدة								١		
الأنعام			١							
الأعراف										
الأنفال										
التوبة										
يونس										
هود										
يوسف				١						
الرعد	١		١							
إبراهيم										
الحجر			١							
النحل										
الإسراء										
الكهف										
مريم										
طه										

الأنبياء										
الحج		١								
المؤمنون										
النور								١		
الفرقان		١								
الشعراء										
النمل										
القصص										
العنكبوت										
الروم										
لقمان										
السجدة										
الأحزاب										
سبأ										
فاطر			١							
يس										
الصافات										
ص			١							
الزمر			١							
غافر			١							
فصلت										
الشورى										
الزخرف										
الدخان										

الجاثية										
الأحقاف										
محمد										
الفتح										
الحجرات										
ق										
الذاريات										
الطور										
النجم										
القمر										
الرحمن										
الواقعة										
الحديد										
المجادلة										
الحشر			١		١	١	١		١	
الممتحنة										
الصف										
الجمعة										
المنافقون										
التغابن										
الطلاق										
التحريم										
الملك										
القلم										

الحاقة										
المعارج										
نوح										
الجن										
المزمل										
المدثر										
القيامة										
الإنسان										
المرسلات										
النبأ										
النازعات										
عبس										
التكوير										
الانفطار										
المطففين										
الانشقاق										
البروج										
الطارق										
الأعلى										
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل										

الضحى										
الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص										
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	العليم ١٦١	البديع ٢	الوهاب ٣	العلى ٩	العزيز ٨٦	الأعلى ٢	الغفور ٩١	الغفار ٥	الغنى ١٧	الفتاح ١
الفاتحة										
البقرة	٢١	١		١	٦		٨		٢	
آل عمران	٩		١		٥		٤		١	
النساء	١٧			١			١٠			
المائدة	٤				٣		٦			
الأنعام	٧	١			١		٣		١	
الأعراف	٣						٢			
الأنفال	٧				٤		٢			
التوبة	١١				٢		٥			
يونس	٣						١		١	
هود	١				٢		١			
يوسف	٨						٢			
الرعد										
إبراهيم					٤		١		١	
الحجر	٣						١			
النحل	٢				١		٤			
الإسراء							٢			
الكهف										
مريم										
طه								١		

الأنبياء	١									
الحج	٢			١	٢		١		١	
المؤمنون	١									
النور	١٠						٤			
الفرقان							٢			
الشعراء	٣				٩					
النمل	٢				١		١		١	
القصص							١			
العنكبوت	٣				٢				١	
الروم	١				٢					
لقمان	٢			١	٢				٢	
السجدة					١					
الأحزاب	٤				١		٥			
سبأ	١				٢		٢			١
فاطر	٣			١	٢		٤		١	
يس	٣				٢					
الصافات										
ص			٢		٢			١		
الزمر	١				٣		١	١	١	
غافر	١			١	٣			١		
فصلت	٢				١		١			
الشورى	٣			٢	٢		٢			
الزخرف	٢			١	١					
الدخان	١				١					

الجاثية					٢					
الأحقاف					١		١			
محمد									١	
الفتح	٢				٣		١			
الحجرات	٤						٢			
ق										
الذاريات	٢									
الطور										
النجم										
القمر					١					
الرحمن										
الواقعة										
الحديد	٢				٢		١		١	
المجادلة	١				١		٢			
الحشر					٣					
الممتحنة	١				١		٢		١	
الصف					١					
الجمعة	١				٢					
المنافقون										
التغابن	٢				١				١	
الطلاق										
التحريم	٢						١			
الملك	١				١		١			
القلم										

الحاقة										
المعارج										
نوح								١		
الجن										
المزمل							١			
المدثر										
القيامة										
الإنسان										
المرسلات										
النبأ										
النازعات										
عبس										
التكوير										
الانفطار										
المطففين										
الانشقاق										
البروج					١		١			
الطارق										
الأعلى						١				
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل						١				

الضحى										
الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص										
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	الملك ٤	الحسيب ٣	القادر ١	القدير ٤٥	المقتدر ٣	القدوس ٢	القاهر ٢	القهار ٦	القيوم ٣	القوى ٩
الفاتحة										
البقرة				٦					١	
آل عمران				٤					١	
النساء		٢		٢						
المائدة				٤						
الأنعام			١	١			٢			
الأعراف										
الأنفال				١						١
التوبة				١						
يونس										
هود				١						١
يوسف								١		
الرعد								١		
إبراهيم								١		
الحجر										
النحل				٢						
الإسراء										
الكهف					١					
مريم										
طه	١								١	
الأنبياء										

الحج				١						٢
المؤمنون	١									
النور										
الفرقان				١						
الشعراء										
النمل										
القصص										
العنكبوت				١						
الروم				٢						
لقمان										
السجدة										
الأحزاب		١		١						١
سبأ										
فاطر				١						
يس										
الصافات										
ص								١		
الزمر								١		
غافر								١		١
فصلت				١						
الشورى				٣						١
الزخرف										
الدخان										
الجاثية										

الأحقاف										
محمد				١						
الفتح										
الحجرات				١						
ق										
الذاريات										
الطور										
النجم										
القمر					٢					
الرحمن										
الواقعة										
الحديد				١						١
المجادلة										١
الحشر	١			١		١				
الممتحنة				١						
الصف										
الجمعة	١					١				
المنافقون										
التغابن				١						
الطلاق				١						
التحريم				١						
الملك				١						
القلم										
الحاقة										

المعارج										
نوح										
الجن										
المزمل										
المدثر										
القيامة										
الإنسان										
المرسلات										
النبأ										
النازعات										
عبس										
التكوير										
الانفطار										
المطففين										
الانشقاق										
البروج										
الطارق										
الأعلى										
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل										
الضحى										

الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص										
الفلق										
الناس										

السورة	الأسماء الحسنى وعدد مرات ورودها فى كل سورة									
	الأول ١	الآخر ١	الظاهر ١	الباطن ١	الرؤوف ١٠	العفو ٥	الودود ٢	الكريم ٣	المجيد ٢	الواحد ٦
الفاتحة										
البقرة					٢					
آل عمران					١					
النساء						٣				
المائدة										
الأنعام										
الأعراف										
الأنفال										
التوبة					١					
يونس										
هود							١		١	
يوسف										١
الرعد										١
إبراهيم										١
الحجر										
النحل					٢					
الإسراء										
الكهف										
مريم										
طه										
الأنبياء										

الحج					١	١				
المؤمنون								١		
النور					١					
الفرقان										
الشعراء										
النمل								١		
القصص										
العنكبوت										
الروم										
لقمان										
السجدة										
الأحزاب										
سبأ										
فاطر										
يس										
الصافات										
ص										١
الزمر										١
غافر										١
فصلت										
الشورى										
الزخرف										
الدخان										
الجاثية										

الأحقاف										
محمد										
الفتح										
الحجرات										
ق										
الذاريات										
الطور										
النجم										
القمر										
الرحمن										
الواقعة										
الحديد	١	١	١	١	١					
المجادلة						١				
الحشر					١					
الممتحنة										
الصف										
الجمعة										
المنافقون										
التغابن										
الطلاق										
التحريم										
الملك										
القلم										
الحاقة										

المعارج										
نوح										
الجن										
المزمل										
المدثر										
القيامة										
الإنسان										
المرسلات										
النبأ										
النازعات										
عبس										
التكوير										
الانفطار								١		
المطففين										
الانشقاق										
البروج							١		١	
الطارق										
الأعلى										
الغاشية										
الفجر										
البلد										
الشمس										
الليل										
الضحى										

الشرح										
التين										
العلق										
القدر										
البينة										
الزلزلة										
العاديات										
القارعة										
التكاثر										
العصر										
الهمزة										
الفيل										
قريش										
الماعون										
الكوثر										
الكافرون										
النصر										
المسد										
الإخلاص										
الفلق										
الناس										

فهرس الموضوعات